الشعر في صدر الإسلام وبني أمية

إعداد

أ.د غريب محمد علي

د.فاطمة الزهراء فوزي

الفرقة الثانية قسم اللغة العربية

العام الدراسي 2024/ 2025م

ـ عصر صدر الإسلام والتطورات السياسية والاجتماعية والدينية:

انقضى العصر الجاهلي بمجيء الإسلام وظهور النبي الكريم صل الله عليه وسلم، والإسلام هو الدين الخاتم والشريعة الربانية السمحة الغراء الأخيرة، وهو يقوم على ثلاث دعائم مهمة هي : العقيدة والعمل والسلوك.

وأهم أركان العقيدة : الإيمان المطلق بوحدانية الله عز وجل، الإله الواحد الفرد الصمد الذي ليس له شريك في ملكه، الواحد الأحد، القادر القاهر الذي ليس كمثله شيء وهو العليم بكل شيء.

وكذلك الإيمان بأن محمداً صل الله عليه وسلم هو الرسول الخاتم، والإيمان بالأنبياء والرسل وبالكتب السماوية جميعها، وباليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب وجنة ونار، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

وإلى جانب تلك الدعامة هناك دعامة العمل : العمل الديني من عبادات وفرائض والعمل الدنيوي الحلال الذي يتكسب الإنسان به ومنه رزقاً حلالاً. وأما الدعامة الثالثة فهي السلوك، والحق أن الإسلام قد أوضح للإنسان طريق الخير من الشر، ودعا إلى الفضيلة، ونهى عن الرذيلة، كما نهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودعا إلى التحلي بالأخلاق الكريمة والتخلي عن الأخلاق الذميمة. والإسلام بذلك عقيدة، وعمل، وسلوك. ويمتد عصر صدر الإسلام في تاريخ الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، ويؤرخ له بعض مؤرخي الأدب من سنة الهجرة النبوية المباركة إلى قيام الدولة الأموية (من السنة الأولى للهجرة إلى سنة أربعين هجرية).

وإن كنا نرى (من الوجهة الأدبية) أن أدب تلك الفترة يمتد إلى ما قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، فمنذ بعث النبي صل الله عليه وسلم ونزل قوله تعالى (اقرأ) بدأ أدب عصر الإسلام.

ولعل أهم سمة لهذا العصر من الناحية السياسية هي : الوحدة فلقد كان العرب في الجاهلية يعيشون حياة قبلية متفرقة لا يعرفون فيها مفهوم الأمة الواحدة، وكانت كل قبيلة تتعصب لنفسها تعصباً شديداً.

وقد وجدت بعض الإمارات في الشمال مثل (المناذرة في العراق والغساسنة في الشام) وبعض الدول في الجنوب مثل (سبأ وحمير ومعين في اليمن) وبعض

المدن مثل (مكة ويثرب والطائف) التي تعارفت على بعض القوانين النابعة من الأعراف والتقاليد، كما كان هناك نوع من الأحلاف بين بعض القبائل مثل الأحلاف التي تمت بين إمارة كندة وبعض القبائل في شبه الجزيرة العربية.

وأما بقية السكان فقد كانوا يعيشون في نظام قبلي، وكان لكل قبيلة مجلس يضم شيوخ العشائر، وكان هذا المجلس ينظر في شئون القبيلة وأمورها وينظم شأنها ويترأس هذا المجلس شيخ القبيلة.

وقد كانت الفردية هي المسيطرة والقوة هي الغالبة، ولكن حينما جاء الإسلام أذاب ذلك كله في بوتقة واحدة فصهر القبيلة ومحا الفردية وأحل نظاماً سياسياً جديداً فلم يعد الفرد يشعر بوجود الجماعة القبلية أو يحس بالتعصب لها. والحق أن تغيرات كثيرة قد طرأت على ذلك كله، وأهم هذه التغيرات اتساع الروابط التي تشد الإنسان إلى أخيه الإنسان، فلم تعد الأخوة مقتصرة على أبناء القبلية بل تجاوزتها إلى كل من يدين بالإسلام وحلت فكرة الأمة محل القبيلة، هذه الأمة التي يعلو فيها القانون السماوي والتشريع الإلهي والدستور الرباني، ومن ثم فقد صارت الرابطة الدينية هي التي توحد، وصار العرب ينضوون شيئاً فشيئاً لسلطان المدينة وقيادة النبي صل الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده. لقد صار للأمة العربية دولة واحدة، وقائد واحد، ودستور واحد، وقانون واحد، وعاصمة واحدة، وراية واحدة، وجيش واحد، وقبل ذلك كله دين واحد.

ومن حيث الناحية الاجتماعية، فلقد أحدث الإسلام تغيرات جذرية كثيرة في المجتمع العربي فلا عصبية لقبيلة ولا سلطان لفرد، وحاول الإسلام جاهداً القضاء على المفاسد الاجتماعية الشائعة وإحلال القواعد الاجتماعية الجديدة التي تتفق والفطرة البشرية النقية الصافية التي فطر الله الناس عليها.

وكان من أهم المفاسد الاجتماعية التي حاول الإسلام محوها : الأخذ بالثأر حيث جعل حق الأخذ بالثأر للدولة لا القبيلة وجعل العقاب بالمثل فلا عدوان ولا اعتداء، وجعل في القصاص حياة للمجتمع حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ

يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة، آية 179) وجعل هذا القصاص في يد الحاكم لا في يد أهل القتيل. ودعا الإسلام إلى التعاون بين الأفراد على الخير ونبذ الخلافات ونهى عن الشرور وقضى على الفوارق الطبقية فلا سادة ولا عبيد، ووضع نظام الزكاة والصدقات فأصبح في مال الغني حق معلوم للسائل والمحروم (قال تعالى ({والّذِين فِي أمْوالِهِمْ حقٌّ معْلُومٌ. لِلسّائِلِ والْمحْرُومِ) المعارج الآية 24، 25. ويقول سبحانه وتعالى (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) الذاريات آية 19)، وقد أدى ذلك كله إلى التكافل الاجتماعي وانتشار المحبة والمودة في المجتمع.

وفي محيط العدالة الاجتماعية أعطى الإسلام المرأة حقها فلقد كان الجاهليون يحطون من شأن المرأة ويرون أن من واجب الأب وأد ابنته حتى لا يلحقه العار أو خوفاً من الفقر (أشار الإسلام إلى ذلك في قول الله سبحانه وتعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) النحل 58، 59 وفي قوله تعالى (وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قتلت) التكوير 8، 9. (ويجب أن نشير هنا إلى أن العرب لم يكونوا جميعاً يندون البنات وإلا انقرض الجنس العربي، إنما بعض القبائل وبعض الأفراد وذلك مثل قيس بن عاصم التميمي الذي وأد بضعة عشر بنتاً، ومنهم من كان يند من البنات زرقاء شيماء (بها علامة قبيحة أو برشاء (بها نقط أبيض) أو كسحاء (قعيدة) أو خوفاً من الفقر والعار).

وأما الإسلام فقد رفع من شأن المرأة وجعلها كفؤاً للرجل، كما نظم الزواج ودعا إلى معاملة الزوجات معاملة طيبة، وجعل الطلاق في أضيق حتى لا تتفكك الأسرة ويتشرد الأبناء.

ودعا الإسلام إلى المعاملة الطيبة ومراعاة الضمير في العلاقات والتجارات والميراث، والحق أنه لم يترك شيئاً إلا سن له قوانينه ونظم دساتيره.، وأحدث الإسلام بالإضافة إلى ذلك كله قيماً جديدة : دينية وعقلية وإنسانية ونفسية كثيرة.

فلقد قضى على عبادة الأصنام ودعا إلى نبذ الأوثان وترك الكهانة والخرافة والشعوذة مرتفعاً بذلك بعقلية الإنسان ومخلصاً الإنسانية من الحماقة والطيش، ودعا الإنسان إلى عبادة الله الواحد الأحد، كما دعا إلى التأمل في ملكوت السموات والأرض والنظر في الكون والنفس والحياة، والتفكير في مخلوقات الله عز وجل (قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) آل عمران 190)، وقد تضمن كثير من الآيات الدعوة إلى ذلك التفكير والتأمل (قال عز وجل (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) الذاريات 20، 21)، وقال عز من قائل (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)العنكبوت 20)، ونحي الإسلام باللائمة على كل من لا يستخدم عقله، فدعا إلى استغلال العقل وأشار إلى فضيلته، ولذا أوجب على الإنسان أن يستخدمه في العلم والمعرفة النافعة وخاصة معرفة الله سبحانه وتعالى.

وكما ارتفع الإسلام بالعقل البشري (ولذلك كانت أول آية في القرآن الكريم داعية إلى العلم والتعليم والمعرفة، قال تعالى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) العلق من 1 إلى 5، وكان العلماء من أكثر الناس خشية لله عز وجل كما يشير إلى ذلك القرآن في قوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) فاطر 28)، فقد ارتفع بالإنسان عامة فدعاه إلى السمو وحرره من العبودية وجعل الناس سواسية كأسنان المشط وكرم الإنسان فجعله أكرم المخلوقات (قال تعالى (۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الإسراء 70)، وحث على الحرية والكرامة، واعتد بحقوق الإنسان ودعا إلى السلم والوئام، ونبذ الحروب والخصام.

والحق أن الإسلام قد بدل حياة العرب المفككة وأخلاقهم السيئة بحياة شريفة لا يستبد فيها ظالم ولا يسودها حقد أو ضغائن، وأبدلهم بالجفاء والغلظة وخشونة القول والفظاظة والعنجهية أدباً كريماً وقولاً ليناً وخلقاً عظيماً وطباعاً تفيض بالجلال والبهاء، طباعاً تعتمد على طهارة النفوس وسلامة الصدور وصفاء القلوب.

ولا يمكن أن يغفل ذلك الأثر الروحي العظيم فلقد تحول العرب من حياة القلق والخوف والحيرة إلى حياة ملؤها الأمن والسكينة والاطمئنان إلى جنب الله.

لقد حولهم الإسلام إلى حياة التقى والورع والتواضع والزهد وكبح جماح النفس والسعي في مناكب الأرض والحياة.، وبمعنى أدق استطاع الإسلام أن يحول حياة الإنسان العربي إلى حياة كلها رضا وطهر ونقاء وعفة وسكينة وصفاء.

ـ مكانة الشعر في صدر الإسلام:

الشعر فن جميل يطلب فيه الرواء والإمتاع ، ويستحسن فيه الحجة والإقناع ، كما يستحسن فيه الاعتماد على الدعوة الهادفة والكلمة الصادقة .وما أعتقد أن امة على الإطلاق قد اهتمت بالشعر اهتمام الأمة العربية به فلقد كان العرب يحتفون بالشعر والشعراء ، وكانت الفرحة تغمرهم إذا ولد فى القبيلة شاعر ، وكانت مكانة الشاعر تسمو فى بعض الأحيان على منزلة كثير من أبناء قبيلته فكان يختار ضمن مجلس العشيرة .

لقد كان الشعر هو الذى يسجل محامد القبيلة ، ويذكر مآثرها ن ويدفع قومه الى المكرمات وتحقيق الأمجاد ، ويحثهم على طلب الثأر ويهجو خصومه ، ويرفع منزلة قبيلته ويمدحها ، ولربما كان بيت واحد من الشعر يرفع أقواما ويضع آخرين.

وكان العرب يرون ان الشعر خير كلامهم وأفضل فخارهم ؛ لأنه ديوانهم الذى يسجلون فيه حروبهم وأمجادهم وتاريخهم ، وهو مجال فصاحتهم الذى يتبارون فيه ويتسابقون إليه.ولقد جاء القرآن متحديا هاتيك البلاغة وتلك الفصاحة فما

استطاع القوم – رغم أنهم أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة – أن يأتوا بآية من مثله فلقد بهروا أمامه وبهتوا واعترفوا بعلو القرآن وسمو نظمه .لقد كانت مكانة الشعر فى العصر الجاهلى سامية سامقة ، وحينما جاء الإسلام كان له موقفه الواضح الجلى من الشعر والشعراء فهو يرفض من الشعر مايتنافى وتعاليم الدين ، ويرضى منه بكل ما يتساوق وقيمه الجلية . ولكن البعض حاول أن يشوه تلك الصورة فادعى أن الشعر قد ضعف وقل واضمحل فى ظل الإسلام وذهب الى ان الأسلام قد حمل على الشعر وشن حربا شعواء على الشعر والشعراء.

ولكن هل حقا قل الشعر واضمحل فى ظل الإسلام ولم تكن له تلك المكانة السامية التى احتلها فى العصر السابق نقصد العصر الجاهلى . وللرد على ذلك يمكن ان نتوقف عند عدة نقاط نستدل بها على ان الشعر لم يقل ولم يضمحل ونرد بها على هؤلاء ونبرهن على ان مكانته لم تهتز فى ظل الإسلام بل عدل الإسلام مساره وهذب أشجاره وأينع ثماره .

ينبغى ان نعلم ان القرآن الكريم حينما نفى صفة الشاعرية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)فى قوله تعالى "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ" إنما نفاها لأسباب أهمها :

ان النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو حامل لواء الدين ومرتل آى القرآن الكريم والمرسل نذيرا وبشيرا ما كان يمكن ان يقول كلاما من عنده ، وانما هو يتلو كلاما منزلا من قبل الله- عز وجل.

أن نفى صفة الشاعرية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) امتداد طبيعي لنفى صفة الشعر عن القرآن الكريم .

ما كان للدعوة الإسلامية ان تقبل "لوكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) شاعرا فلقد عرف العرب ان الشاعر تابع الشيطان منه يقتبس وعنه يتلقى الإلهام".

ان مهمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن الإمتاع الفنى بل هى مهمة أسمى وهى الإقناع العقلى والتبشير بدين سماوى عظيم ينظم للناس حياتهم .

هـ ماعرف عن الشعر من الميل الى المبالغة والإدعاء ما اشتهر به الشعراء من الجنوح الى الخيال والتهويل والتهويم .

أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ماكان يقيم إنشاد الأبيات على الإطلاق كما دلت على ذلك الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة الدلالة .

والبيت الذى صح وزنه وجرى على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو من الرجز ، المنهوك والمشطور قوله :

أنا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو العربى الخالص يتذوق فن الكلام ويعرف ما للشعر من قيمة وتأثير فهو أفصح العرب على الإطلاق ، وعليه نزلت أفصح الكلمات .

قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن امرئ القيس بأنه قائد لواء الشعراء الى جهنم يعود الى ما فى شعر امرئ القيس من تهتك وفجور وعهر ومجون وما فيه من مخالفة لدين الله فامرؤ القيس هو أول من فتح أمثال هذه الأبواب المجونية فنهج الشعراء الفاسدون نهجه وسلكوا سبيله واتخذوا طريقه ولعل الرسول بهذا الحديث يحذر الشعراء من السير على طريقة امرئ القيس وكأنما يريد ان يقول لهم إن من سار على نهج امرئ القيس فلسوف يلقى جزاءه فى جهنم.

لكى نرد على المدعين الذين ذهبوا الى ان الإسلام هاجم الشعراء فى قوله تعالى "وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" لابد أن نشير الى ضرورة إكمال الآيات التى وردت فى سورة الشعراء ولا نصنع صنيع المتوقفين عند قوله تعالى "ولا تقربوا الصلاة" أو صنيع المغرضين الذين يزعمون ان الله توعد المصلين بالويل فى قوله تعالى " ويل للمصلين" فلقد قال عز من قائل

"ولا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى " وقال " وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ " ولهذا يجب ان نكمل الآيات فى سورة الشعراء " والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " ففى نهاية الآيات استثناء يخرج الشعراء المؤمنين من دائرة الشعراء الغاوين الهائمين فى كل واد . ولهذا يجب أن يلاحظ ان المقصود بالشعراء الغاوين هم المشركون الذين آذوا النبى بالهجاء وهذا ما فهمه ابن رشيق من الآية وما يدلنا على ذلك الفهم أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك إلى رسول الله وهم يبكون فقالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية انا شعراء فتلا النبى (صلى الله عليه وسلم) " إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" .

لكى نفهم قوله(صلى الله عليه وسلم) لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا يجب أن نعرف اولا ان الشاعر كالنحلة تأخذ من كل زهرة رشفة ومن كل بحر قطرة وأن أفكاره بعيدة عن الثبات والاستقرار وهو واسع الخيال فإنه يقول أحيانا مالا يفعل فيفتخر ويدعى الغلبة وهو المغلوب ويزعم انه انتصر وهو المهزوم المقهور .

ويجب أن نربط هذا الحديث بمناسبته فهى تلقى ضوءا من البيان عليه فعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالعرج "واد بالحجاز" إذ عرض شاعر ينشد فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا ومن سياق المناسبة يبدوا أن الشاعر فاجأ القوم يتغنى بما يكرهون وما كانوا يكرهون إلا حديثا يمت إلى صنم أو يتصل بوثن أو يهدم فضيلة أو يدعو إلى فساد ورزيلة وهم فى موقف ليسوا فى حاجة فيه الى الشعر فلق كانوا مشغولين بما هو أهم ؛ ولذا فقد فسر الحديث بأن يمتلئ قلبه حين يشغله عن القرآن وذكر الله ووضع

فى البخاري تحت باب "ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن الله والعلم والقرآن .

وفسر أيضا بأن المراد بالشعر شعر هجى به (صلى الله عليه وسلم) ويقصد بذلك الرجل الذى غلب الشعر على قلبه وملك عليه نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فرائض الله ، وأما ما يتخذ من الشعر أدبا وفكاهة طيبة وإقامة مروءة

فلا جناح عليه . هذا بالإضافة إلى أن الحديث يروى برواية أخرى هى:

.....خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به"

ماجاء فى القرآن الكريم من آيات أو ماجاء على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) من كلمات على وزن شعرى ليست من الشعر رغم أنها موزونة وذلك مثل قول الله-عز وجل- "إن بعض الظن إثم "فهو من مجزوء الرمل ولكنه ليس شعرا . وكذلك ماجاء على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قوله :" اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرين " وقوله "أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب " فهى عبارات موزونة لكنها تفقد القافية الموحدة كما أنها لم تأت مقصودة لذاتها إنما جاءت هكذا عفوا بدون تعمد هذا من قبيل المنثور الذى يوافق المنظوم لأنه لا يراد به الشعر وإن كان موزونا .

علينا أن نعلن أن مكانة الشعر لم تهتز فى ظل الإسلام ولم تقل بل كان للشعر مكانة بارزة سامية سامقة ، وللدلالة على ذلك يمكن أن نسوق بعض مواقف النبى وبعض مواقف الصحابة من الشعر لنبرهن على صدق ما نذهب اليه.

موقف النبى(صلى الله عليه وسلم) من الشعر :

تدلنا الدلائل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)كان يحب الشعر ويتذوقه وينقده ويستحسن بعضه ويستهجن بعضه ويتأثر به ويتمثل به فى بعض المواقف ويرفع من مكانة الشعراء ويعلى من منزلتهم ويحبهم ويقربهم اليه ويدنيهم.

ويمكن أن نسوق للدلالة على ذلك ما يأتى:

قوله (صلى الله عليه وسلم)" إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح وقوله عليه السلام " إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما حينما أعجب بكلام عمرو ابن الأهتم ،وقوله (صلى الله عليه وسلم)"إن من الشعر لحكمة "

والحديث الأول قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعليقا على أبيات العلا بن الحضرمي التى يقول فيها ":

حى ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيتك القربى فقد ترقع النعل

فإن دحسوا بالكره فاعف تكرما وإن خنثوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذى يؤذيك منه سماعـــه وإن الذى قـــالوا وراءك لم يقل

وروى الحديث بصورة أخرى هى :"إن من الشعر لحكمة فإذا البس عليكم شئ من القرآن فالتمسوه فى الشعر فإنه عربى".

وللحديث الاخير مناسبة وهى أن احد اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قد خرج فى إحدى الغزوات وكان الدم يسيل من جرحه بشكل متواصل ولم يجد فيه ضماد حتى جاء حسان فقال ائتونى بالكافور فوضع الكافور على الجرح فجف الدم فسأل النبى حسان من أين اقتبست هذا ياحسان فقال من قول الشاعر :

فكرت ليلة وصلها فى هجرها فجرت مدامع مقلتى كالعندم

فطمقت أمسح مقلتى بخـدهـا إذ عاد الكافور إمساك الدم

فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) "إن من الشعر لحكمة".

كان (صلى الله عليه وسلم) يضع لحسان ابن ثابت-رضى الله عنه- منبرا فى المسجد ينشد فيه الأشعار وينافح فيه عن الدين العظيم كما يدافع عن النبى الكريم .

كان عليه السلام يدعو لحسان فيقول :" اللهم أيده بروح القدس " وكان يقول له :"اهجمهم وروح القدس معك " وفى رواية "اهجمهم وجبريل معك " .

جاء حسان يستأذن النبى (صلى الله عليه وسلم) فى هجاء المشركين فقال له وكيف بنسبى ؟ "فقال والله لأسلنك كما تسل الشعرة من العجين " .

كان يقول عن شعر حسان " لهذا أشد عليهم من وقع النيل ".

قال (صلى الله عليه وسلم) لكعب ابن مالك :"مانسى ربك شعرا قلته قال وما هو يارسول الله ؟فقال أنشده يا أبا بكر فأنشده أبو بكر قوله:

زعت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

كان عليه السلام يجند الشعر على المشركين ويدل على ذلك قوله لحسان :"شن القطاريف على بنى عبد مناف، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام ".

كان عليه السلام يستنشد شعر أمية بن أبى الصمت " وأمية هذا شاعر آمن لسانه وكفر قلبه " والدليل على ذلك ماروى من حديث أبى شيبة عن عمرو بن الشريد عن أبيه فقال "ردفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوما فقال :هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شئ ؟ قلت :نعم فأنشدته بيتا ،فقال :هيه حتى أنشدته مائة قافية ،يقول بعد كل قافية :هيه.

قال النبى (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بن رواحه " أخبرني مالشعرياعبد الله قال شئ يختلج فصدرى فينطق به لسانى ، قال : فأنشدني ، فأنشده شعره الذى يقول فيه :

فثبت الله ما آتاك من حسن قفوت عيسى بإذن الله والقدر

فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) :وإياك ثبت الله ،وإياك ثبت الله .

روى عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه طلب من عكرمة بن عباس أن ينشده شعرا لأمية بن أبى الصلت فأنشده قوله:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا

ألا نبى لنا منا فيخبرنا مابعد غايتنا من رأس محيانا

وقد عبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن إعجابه بهذا الشعر بقوله:" إن كاد أمية ليسلم "

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقبل على كل شعر يتضمن حكمة صادقة أو خلقا كريما أو رأيا صائبا فى الحياة أو الناس والدليل على ذلك ماروى عن أبى ليلى النابغة الجعدى من أنه قدم على النبى (صلى الله عليه وسلم) فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وثناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى أين يابى ليلى ؟ فقال الى الجنة بك يارسول الله فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) الى الجنة ان شاء الله ،فلما انتهى النابغة الى قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له موارد تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له النبى (صلى الله عليه وسلم) أجدت ،لا يفضض الله فاك " فعاش النابغة مائة وثلاثين سنة لم تسقط له ثنيه .

سمع النبى (صلى الله عليه وسلم) السيدة عائشة تنشد شعر زهير بن جناب الذى يقول فيه .

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوما فتدركه عواقب ماجنى

يجزيك أو يثنى عليك فإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فقال (صلى الله عليه وسلم):صدق يا عائشة لايشكر الله من لا يشكر الناس([1]).

ذكر للنبى (صلى الله عليه وسلم) قوله طرفه:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال هذا من كلام النبوة([2]) .

روى يزيد بن عمرو الخزاعى عن أبيه عن جده قال: دخلت على النبى (صلى الله عليه وسلم) ومنشد ينشده قول سويد بن عامر المصطلقى :

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم ان المنايا بجنب كل إنسان

فاسلك طريقك تمشى غير مختشع حتى تلاقى الذى منى لك المانى

فقال (صلى الله عليه وسلم) "لو أدرك هذا الاسلام لأسلم"([3])

جاء ضرا بن أزور النبى يقول : أأنشدك يارسول الله ، قال نعم فأنشده :

تركت القيان وعزف القيا ن وأدمنت تصلية وابتهالا

وكر المشقر فى حومـــــه وشنى على المشركين القتال

فيا ربى لا أغبنن صفقتى فقد بعت مالى وأهلى بدالا

فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) ربح البيع، ربح البيع([4]) وقيل " ماغبت صفقتك ياضرار "

---

[1]- العقد الفريد /جـ6،صـ125

[2]- العقد الفريد / جـ6 ، صـ 120

[3]- العقد الفريد / جـ 6 ، صـ 125

[4]- العقد الفريد / جـ ، صـ 125 ، وانظر أسد الغابة ، ابن الأثير ، جـ 3 ، صـ 52 وفى رواية ابن الاثير .
خلعت القداح وعزف القيان والخمر أشربها والثمالا

حدث زياد بن طارق الجشمى قال : حدثنى أبو جرول الجشمى وكان رئيس قومه قال :

أسرنا النبى (صلى الله عليه وسلم) يوم حنين فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت بين يديه وأنشدته :

أمنن علينا رسول الله فى حرم فإنك المرء نرجوه وننتظر

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها يا أرجح الناس حلما حين يختبر

إنا لنشكر للنعى إذا كفـــرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه ؛ فقال (صلى الله عليه وسلم) : أما ما كان لى ولنبى عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار وماكان لنا فهو لله ولرسوله فردت الأنصار ماكان فى أيدينا من الزرارى والأموال ([1]) .

روى أن الشعراء كانوا ينشدون الشعر بين يديه (صلى الله عليه وسلم) فى كثير من اللحظات .ومن ذلك أنه حينما دخل عليه السلام مكة معتمرا عمرة القضاء فى السنة السابعة للهجرة قدم عبد الله بن رواحه فأخذ بخطام ناقته مرتجزا بأبيات منها :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله

يارب إنى مؤمن بقيلـــه أعرف حق الله فى قبوله([2])

يروى لنا التاريخ أن الذى هاج فتح مكة هو ان عمرو بن سالم الخزاعى خرج من مكة حتى قدم على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فى المدينة، وكانت خزاعة فى

وكرى المحبر فى غمرة وجهدى على المسلمين القتالا
فيا رب لا أغبنن صفقتى فقد بعت أهلومالى بدالا
فقال النبى (صلى الله عليه وسلم)" ربح البيع ، ماغبت صفقتك ياضرار "

[1]- العقد الفريد / جـ 6 – صـ 129

[2]- ديوان عبد الله بن رواحة / تحقيق د .وليد قصاب / صـ 144 / ط دار الضياء / عمان/ ط ثانية سنة 1988 وانظر / سير بن هشام / ق 2- جـ 3 / صـ 371. وقد قال سيدنا عمر : يابن رواحة ،فى حرم النبى وبين يدى رسول الله تقول الشعر فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" خل عنه ياعمر ،فلهو أسرع فيهم من نضح النبل " انظر :الترمزى باب الأدب " وانظر القرطبى جـ13 ، صـ151 .

حلف النبى وقد نقضت قريش العهد الذى بينها وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) باعتدائها على خزاعة وأصابت منهم مقتلا كثيرا فقال عمرو بن سالم يستصرخ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويذكره بحلفه مع خزامة :

يارب انى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الاتلـــدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فانصر هداك الله نصرا اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

هم بيوتنا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا ([1])

فلما سمع النبى (صلى الله عليه و سلم) هذا الشعر دمعت عيناه وقال : نصرت ياعمرو .

قال (صلى الله عليه و سلم) ان اصدق بيت قالته العرب هو بيت لبيد :

الا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل([2])

كان (صلى الله عليه و سلم) يتدخل فى تعديل بعض الكلمات فى الشعر ليساير الشعر روح الاسلام ، ومن ذلك ماروى من ان كعب بن زهير حينما قال البيت المشهور

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

قال له الرسول " من سيوف الله " فعدل كعب هذا البيت وقال:

- - - - - - - - - - - مهند من سيوف الله مسلول([3])

21- روى عنه (صلى الله عليه و سلم) ان اسيد بن ابى اناس جاءه يقول وانت الفتى تهدى معدا لدينها .فقال له النبى (صلى الله عليه و سلم): بل الله يهديها " فقال اسيد :

---

[1]- العقد الفريد / جـ 6 ،صـ130 وانظر سيرة بن هشام ، ق2،جـ3 ، صـ394 .

[2]- صحيح المسلم / جـ4 ، صـ1768 (وفى رواية أشعر كلمات تكلمت بها العرب وفى رواية اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد)

[3]- انظر شرح ديوان كعب بن زهير /صـ23 /ط ثالثة – دار الكتب المصرية سنة 2002 – صنعة أبى سعيد السكر .

وأنت الفتى تهدى معدا لدينا بل الله يهديها وقال لك أرشد

كان (صلى الله عليه و سلم) يتأثر بالشعر ايما تأثر ، والدليل على ذلك انه لما نزل الاثيل وهو موضح قرب المدينة أمر عليا فضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبرا ، فقالت له قتيله بنت النضر بن الحارث وهو يطوف بالكعبة .

يا راكبا إن الاثيل مظنة من صبح خامسة وانت موفق

ابلغ بها ميتا بأن قصيدة ما إن تزال بها النجائب تخفق

منى اليك وعبرة مسفوحة جادت لما تحها وأخرى تخنق

هل يسمعني النضر ان ناديته ام كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمد ها أنت نجل نجيبة فى قومها والفحل فحل معرق

ماكان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنضر اقرب من قتلت قرابة وأحقهم ان كان عتق يعتق

ظلت سيوف بنو أبية تنوشه لله أرحام هناك تمزق

فتأثر الرسول بهذا الشعر أيما تأثر ، وقال لو بلغنى هذا قبل قتله ماقتلته.

ومما يدلنا على تأثر ه بالشعر واهتزازه له ، وانفعاله به ماروى من انه كان قد أهدر دم كعب بن زهير ، فلما جاء كعب تائبا نادما منشدا قصيدته المشهورة " بانت سعاد " والتى مدح فيها النبى (صلى الله عليه و سلم) عفا عنه النبى والقى عليه بردته الشريفة ثوابا له .

روى عن الرسول (صلى الله عليه و سلم) أنه جلس فى مجلس ليس فيه الا خزرجى فاستنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم (وهو شاعر من الأوس) يعنى القصيدة التى مطلعها :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب ؟

فأنشده بعضهم اياها حتى بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

فالتفت اليهم رسول الله ε) فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد لـه ثابـت بـن قـيس بـن شماس وقال له : والذى بعثك بالحق يارسول الله لقد خرج الينـا يـوم سـابع عرسـه فجالدنا كما ذكر.

فهذا مجلس ادبى شارك فيه الرسول(صـلى الله عليـه و سـلم) بالسـماع والتـذوق ، فلو كانت مكانة الشعر قد قلـت مـا وجـدت أمثـال تلـك المجـالس التـى كـان الرسـول (صلى الله عليه و سلم)يشارك فيها .

لا أدل على علو مكانة الشعر من احتفاء الرسول بالشعراء وحبـه ايـاهم فاقـد روى ان المقوقس قد أهدى للرسول (ε) بعض الهدايا منها :منها مارية القبطية وجاريـة أخرى هى اخت مارية " سيرين " فتزوج الرسول(ε) مارية وأهدى الجارية الثانية لشاعره المشهور حسان بن ثابت دلاله علـى اعتـزازه بالشـعر واحتفائـه بالشـعراء وحبه لهم ودلالة على ارتفاع مكانة الشعراء فى عهده .

كان الرسول (ε) يستمع الى الخنساء ويسألها أن تزيده من شعرها ، ويقـول لهـا : إيه يا خناس .

كانت القبائل تفد عليه (ε) لتعلن اسلامها وفى هـذه الوفـود شـعراء يتحـدثون باسـم قبائلهم وكان الرسول يستمع اليهم وذلك مثلما حدث مع وفد تميم الذى جاء ومعهـم شاعرهم الزبرقان بن بدر الذى وقف يقول :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تقسم الربع

ان ابينا ولم يأب لنا احد وانا كذلك عند الفخر نرتفع

فبعث رسول الله (ε) الى حسان ولم يكن بالمجلس ، فلما سمع قول هذا الشاعر قال له النبى (ε) قم ياحسان فأجب الرجل فقال مرتجلا : قصيدته التى منها هذه الأبيات :

إن الذوائب من فهر واخواتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

قوم اذا حاربوا ضروا عدهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

ان كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

ولما انتهى من القصيدة قال الاقرع بن حابس رئيس الوفد "لشاعره –يعنى حسان شاعر الرسول – أشعر من شاعرنا .

قول النبى (ε) لكعب بن مالك " ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل" .

عندما أنشد سيدنا حسان قصيدته التى رد بها على ابى سفيان بن الحارث والتى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء الى عزراء منزلها خلاء

دعا له الرسول (ε) بالجنة مرتين ، وعندما وصل حسان الى قوله :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

قال (ε) جزاؤك عند الله الجنة ياحسان " ولما وصل حسان الى قوله :

فإن ابى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قال (ε)" وقاك الله حر النار" .

كان (ε) يعجب بقول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى انال به كريم المأكل

وقد جسد (ε) اعجابه بعنترة فقال " ماوصف لى اعرابى قط فأحببتان اراه الا عنترة .

قوله (ε) " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين " .

استماع الرسول (ε) الى كعب بن زهير وهو ينشد قصيدته " بانت سعاد " .

جاء رجل الى رسول الله (ε) ينشده قول سحيم عبد بنى الحسحاس:

الحمد لله حمدا لانقطاع له فليس احسانه عنا بمقطوع

فقال عليه السلام :" أحسن وصدق وان الله ليشكر مثل هذا "

التفت مرة (ε) الى حسان قائلا هات ماقلت فى وفى ابى بكر فقال حسان:

إذ تذكرت شجوا من اخى ثقة فاذكر أخاك ابا بكر بما فعلا

فقال (ε) صدقت ياحسان . دعوا لى صاحبى وفى رواية : صدقت ياحسان هو كما قلت .

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان رسول الله (ε) يخصف نعله وكنت أغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا فبهت فنظر الى فقال : مالك بهت ؟ فقلت يا رسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا فلو رآك ابو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره قال وما يقول ياعائشة أبو كبير الهزلى؟ فقالت يقول :

وإذا نظرت الى اسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت فوضع رسول الله (ε) ماكان فى يده وقام الى فقبل مابين عينى وقال : جزاك الله يا عائشة خيرا ماسررت منى كسرورى منك .

قال رسول الله (ε) أمرت كعب بن مالك فقال واحسن وأمرت عبد الله بن رواحه فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى .

كان يرتجز بأبيات عامر بن الأكوع اثناء خروجه خروجه الى خيبر فى السنة السابعة للهجرة وهى الابيات التى يقول فيها :

والله لولا الله ماهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام ان لاقينا

كان كثيرا ما يطلب (ε) سماع الشعر أثناء رحلاته ليهون به السفر ومن ذلك انه سأل على حسان فى احدى ليالى سفره فقال حسان لبيك يا رسول لله

وسعديك فقال له النبى " احد" فجعل ينشد والنبى يصغى اليه فمازال يستمع اليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده .

يجب الا ننسى ان النبى (ε) قد استقبله بنو النجار يوم وصل المدينة مهاجرا اليها بقولهم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

حينما جاء ابو حبيب ينشده قول سحيم عبد بنى الحسحاس :

الحمد لله حمدا لانقطاع له فليس احسانه عنا بمقطوع

قال (ε) :" أحسن وصدق وإن الله ليشكر مثل هذا ، وإن سدد وقارب إنه لمن اهل الجنة ".

سمع النبى (ε) كعب بن مالك يقول :

الا هل اتى غسان عنا ودونهم من الارض خرق غوله متنعنع

مجالدنا عن جزمنا كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع

فقال لاتقل : عن جزمنا وقل عن ديننا ، فسر كعب وعدل البيت وافتخر بذلك قائلا : ما أعان رسول الله أحدا فى شعره غيرى ويلاحظ أنه (ε) قد اعان كعب بن زهير ايضا فى قصيدته " بانت سعاد "

امتدح الرسول (ε) بن رواحة لعفة لسانه فقال : ان أخاكم لا يقول الرفث ".

روى خريم بن أوس الطائى قال: قدمت على رسول الله منصرفا من تبوك فسمعت العباس عمه يقول : يارسول الله انى اريد ان امتدحك فقال (ε) قل لا فضفض الله فاك فأنشأ يقول:

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

وبعد : فلقد كان الرسول (ε) يتذوق الكلمة ويعرف للشعر قيمته وتأثيره . وكثيرا ماكان يستنشد الرواة الشعر ويستمع الى ما يروون ويسهم فى نقد فى بعض معانيه ويقيم مايشبه المجالس الأدبية التى يشارك فيها ويقبل على الشعر راغبا فى سماعه ، ويسأل اصحابه عنه ، ويدعو لشعرائه بالتوفيق ويبدى اعجابه ويرشد الى مواطن الخير فيه ، ويرشد الى مواطن الخلل فيه فيقومه . وكان يتخذه وسيله اعلامية ، وحربا نفسية فى بعض الاحيان وكان يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر انسانية مهذبة وعواطف راقية سامية ويتخذه وسيلة للجهاد وينفعل ببعضه اشد الانفعال ويقدره اعظم التقدير ويعتز به ويحتفى أيما احتفاء .

وكان يقرب الشعراء اليه ويرفع من منزلتهم ويرتضى ما ارتضاه القرآن الكريم ويقوم الشعراء.

ويوجههم ، وله لمحات نقدية رائعة ويستمع الى الرجال والنساء على حد سواء،وفى ذلك كله دلاله صادقة على علو منزلة الشعر فى عصره (صلى الله عليه و سلم)

موقف الصحابة من الشعر :

لم يكن موقف الصحابة من الشعر إلا كموقف الرسول (صلى الله عليه و سلم) منه ولم يكن شأن الشعر فى عهد الخلفاء أقل منه فى عهد النبى عليه السلام ، فلقد كانوا يشجعون الشعراء ويحثونهم على قول الشعر ويستمعون اليهم ويتذوقون الشعر ويتأثرون به أيما تأثر ويشاركون فى نظمه .

وللدلالة على علو مكانة الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين يمكن ان نسوق الأدلة الآتية :

حكى جابر بن سمرة قال : جالست الرسول (صلى الله عليه و سلم) أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد .

كتب عمر بن الخطاب الى ابى موسى الأشعرى يقول: "مر من قبلك بتعليم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفى الأنساب ".

روى أنس بن مالك قال :" قدم علينا رسول الله (صلى الله عليه و سلم) وما فى الأنصار بيت الا يقول الشعر ".

قال عمر بمن الخطاب للوفد الذى قدم عليه من غطفان : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب ؟

قالوا : نابغة بن ذبيان . فقال: فمن ذا الذى يقول هذا الشعر ؟:

فألفيت الأمانة لم أخنها كذلك كان نوح لايخون

قالوا هو النابغة :

قال : هذا أشعر شعرائكم أى أشعر شعراء بنى غطفان .

قال عمر بن الخطاب لابن عباس أنشدني لأشعر الناس الذى لا يعاظل بين القوافي(أى لا يعتقد ولا يوالى بعضه فوق بعض ولا يتتبع حوشى الكلام) ، قال من ذلك يا

أمير المؤمنين ؟ قال زهير بن أبى سلمى فلم يزل ينشده من شعره الكثير وهو القائل :

وإن أشعر بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

عقد عمر بن الخطاب ذات ليله مجلسا لابن عباس طالبا منه ان ينشده لشاعر الشعراء فقال ابن عباس : ومن هو ؟ قال الذى يقول :

ولو ان حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت : ذاك زهير ، قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء؟ قال لأنه كان لايعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح احدا الا بما فيه .

قال عمر بن الخطاب : الشعر جزل من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويتبلغ به القوم فى ناديهم ويعطى به السائل .

لما هاجر النبى (صلى الله عليه و سلم) الى المدينة وهاجر أصحابه مسهم وباء المدينة فمرض ابو بكر وكان إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى اهله والموت أدنى من شراك نعله

روى بن سلام عن ابن جعدية قوله : مأأبرم عمر بن الخطاب أمرا إلا تمثل فيه ببيت من الشعر .

سئل مالك بن أنس عن ابيه من اين شاطر عمر بن الخطاب عماله ؟ فقال اموال كثيرة ظهرت عليهم وان شاعرا كتب اليه يقول :

نحج اذا حجوا ونغزو اذا غزوا فانى لهم وفر ولسنا بذى وفر

اذا التاجر الهدى جاء بفارة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى

فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرتهم منك بالشطر

فشاطرهم عمر اموالهم.

كان سيدنا عمر قد حبس الحطيئه بسبب كثرة هجائه ولكنه لما سمع قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ رغب الحواصل لا ماء ولا شجر

القيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمر

تأثر تأثرا شديدا وأفرج عنه بعد ان اخذ العهد عليه بالكف عن الهجاء وأعطاه ثلاثة الاف درهم مشتريا بذلك منه أعراض المسلمين .

روى عن سيدنا عمر قوله من خير صناعات العرب :الأبيات يقدمها الرجل بين يدى حاجته ، يستنزل بها الكريم ويستضعف بها اللئيم .

لم تقف مكانة الشعر لدى الصحابة والخلفاء الراشدين عند حد التمثيل بالشعر والتأثر به بل كان منهم من هو شاعر ينظم البيت والبيتين ، والمقطوعة والمقطوعتين والقصيدة والقصيدتين ، بل الديوان برمته ،مثل: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، ومن الخلفاء الذين ذكر لهم شعر سيدنا أبو بكر الصديق ومن شعره قوله :

أيا عين جودي ولا تسامى وحق البكاء على السيد

فصلى المليك اله العباد ورب البلاد على احمد

فكيف الإقامة بعد الحبيب بين المحافل والمشهد

فليت الممات لنا كلنا وكنا جميعا مع المهتدى

ومن شعر عمر قوله يوم فتح مكة :

الم تر أن الله أظهر دينه على كل دين قبل ذلك حائد

وأمكنه من اهل مكة بعدما تدعوا الى أمر من الغبى فاسد

فأمسى رسول الله قد عز نصره وأمسى عداه من قتيل وشارد

ومن شعر على قوله :

أفاطم قد ابليت فى نصر أحمد ومرضاة رب بالعباد رحيم

أريد ثواب الله لاشئ غيره ورضوانه فى جنة ونعيم

ومن شعره أيضا قوله :

نصرنا رسول الله لما تدابروا وثاب اليه المسلمين ذوو الحجى

ضربنا غواة الناس عنه تكرما ولما يروا قصد السبيل ولا الهدى

لم يكن الرجال من الصحابة فقط هم الشعراء بل شاركت المرأة المسلمة فى ميدان الشعر ، ومن النساء الشواعر الخنساء ومنهن صفية بنت عبد المطلب ، ومن شعرها فى رثاء النبي قولها :

الا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافيا

وكنت رحيما هاديا ومعلما ليبك عليك اليوم من كان باكيا

ومنهن عاتكة بنت عبد المطلب ومن شعرها يوم بدر قولها :

فهلا صبرتم للنبى محمد ببدر من يغش الوغى حق صابر

ولم ترجعوا عن مرفهات كأنها حريق بأيدى المؤمنين بواتر

ولم تصبروا للبيض حتى أخذتهم قليلا بأيدى المؤمنين مساعر

الخنساء كانت شاعرة ولها ديوان من الشعر .

صفية بنت عبد المطلب لها من الشعر ما ألف ديوانا بأكمله .

للسيدة فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه و سلم) شعر ومن ذلك قولها فى رثائه

قل للمغيب تحت أطباق الثرى ان كنت تسمع صرختى وندائيا

صبت على مصائب لوانها صبت على الايام عدن لياليا

ويلاحظ ان عدد الشواعر فى صدر الإسلام قد بلغ خمسة وستين شاعرة

وبعد :

فإن الشعر فى صدر الإسلام لم يكن قليلا ولا ضعيفا ولم تتراجع مكانته ولم تهتز بل ارتفعت وسمت واتجه به الاسلام الاتجاه الصحيح ووجهه الوجه السليمة وكل الادلة التى سقناها تبرهن على علو تلك المكانة ،ولبيان وفرة الشعر فى تلك الفترة يمكن ان نشير الى شيئين مهمين فى نهاية الموضوع هما :

أولا : أن هذه الفترة قصيرة اذا قيست بالفترة السابقة نعنى العصر الجاهلي–فهى فترة لاتتجاوز الخمسين سنة بينما يمتد العصر الجاهلى الى نحو قرنين من الزمان ، ومعنى ذلك ان فترة صدر الإسلام لا تزيد – من الناحية الزمانية – على ربع العصر الجاهلى ومعنى ذلك اننا بعملية حسابية نجد ان كل اربعة شعراء جاهليين يقابلهم شاعر اسلامى واحد ورغم ذلك فإننا نجد النسبة تزيد عن ذلك بكثير .

ثانيا- رغم قصر هذه الفترة وانشغال المسلمين بالحروب والفتوحات والدعوة ورغم ماهو معروف عن شعر الفتوحات من كثرة الضياع فلقد وصل الينا من هذه الفترة اكثر من عشرين ديوانا مابين مطبوع وخطوط ومن هذه الدواوين عن سبيل المثال : ديوان ابى بكر – ديوان على بن ابى طالب – ديوان حسان – ديوان كعب بن مالك –ديوان عبد الله بن رواحة – ديوان النابغة الجعدى– ديوان خفاف بن ندبة –ديوان العباس بن مرداس – ديوان ضرار بن الخطاب – ديوان كعب بن زهير – وشعر صفية بنت عبد المطلب – ديوان الشماخ بن ضرار – والمزرد بن ضرار – والحطية– وابى محجن الثقفى– وديوان حميد بن ثور –

ديوان لبيد – ديوان تميم بن مقبل – ديوان سحيم بن وثيل – ديوان عمرو- ديوان معدى بن كرب هذا عدا المقطوعات المتناثرة فى كتب الأدب والتاريخ والتى تبلغ اكثر من ست عشرة وأربعمائة مقطوعة .

ومن ثم فإننا فى نهاية الحديث عن هذا الامر يجب ان نعلن ان المقولة التى ادعاها المدعون بأن الشعر قد قلت مكانته وضعفت منزلته فى صدر الاسلام مقولها باطلة مردها الى فهم سيئ لموقف الاسلام من الشعر والى عدم تبصر قائليها بموقف الرسول (صلى الله عليه و سلم) والصحابة رضوان الله عليهم من ذلك الفن الجميل ، كما أنهم لم ينتبهوا الى ان الشعر الإسلامي فى معظمه أليف اللفظ قريب المعنى سهل العبارة رشيق الاسلوب ليس فيه من فخامة التركيب والديباجة البدوية وغرابة اللغة مما حدا بأصحاب اللغة ومتتبعي الشواهد الى نبه وعدم الاهتمام به لأنهم كانوا يبحثون عن الشعر العويص المعنى الغريب اللفظ المملوء بداوة وجزالة وفخامة فلما وجد أصحاب هذه المقولة عدم اهتمام أصحاب اللغة بذلك الشعر زعموا ذلك الزعيم . والحق ان فى كل ما أوردناه رد مفحم على مقولتهم وتفنيد واضح لمزاعمهم وعودة صحيحة الى فهم الشعر فى صدر الاسلام ومعرفة مكانته العالية خاصة عند النبى (صلى الله عليه و سلم) وصحبه الكرام .

المديح النبوي فى زمن رسول الله (صلى الله عليه و سلم)

من المعلوم لدى دارس الادب العربي ان الشعر ديوان العرب ، وان فن المديح من اكبر فنون هذا الديوان ، ان لم يكن اكبرها على الاطلاق ، والمديح هو فن الثناء والإطراء وابراز مواهب الممدوح والتغني بصفاته،

ونعته من نعوت قد لا تكون من جملة شمائله ؛ ولذا كان هذا الفن باب للتكسب لدى الشعراء ومدخلا للنفاق والرياء .

ولكن الامر فى فن المديح النبوى يختلف كثيرا فقائله يلمس فيه الصدق والاخلاص ، ينظم بلا هوى وينشد بلا غرض ، هدفه الانتصار للدين الحنيف ومبادئه الكريمة ، والتقرب الى الله ورسوله .

والحق اننا لم نجد شخصية قد احتفل بها الشعراء كشخصية نبينا الكريم محمد (صلى الله عليه و سلم) فلقد رافقه الشعر منذ ميلاده حتى وفاته راصدا صفاته ، راسما شخصيته ، مبرزا أخلاقه وأعماله ومعجزاته ، مبينا فضله على العالمين .

واذا حاولنا ان نرصد ابراز العلامات الواضحة فى مديحه(صلى الله عليه و سلم)

فى حياته فإننا سنجد ا ناول ما تطلعنا به المصادر فى هذا الصدد ابيات أوردها صاحب السيرة النبوية " تنسب الى عبد المطلب جد الرسول قالها إثر مولد النبى عليه السلام مباشرة مطلعها :

الحـــمد لله الذى أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد فى المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذى الأركان

ولما فصلت العير بمحمد الرضيع الى ديار بنى سعد قالت السيد آمنه ام النبى (صلى الله عليه و سلم) ابياتا تعيذه فيها من الشرور وتدفعوا الله أن تراه فتى يافعا ورجلا حامل الحلال داعيا اليه ، تقول فيها :

أعيذه بالله ذى الجلال من شر مامر على الجبال

حتى اراه حامل الحلال ويفعل العرف الى الموالى

ولما بلغ (صلى الله عليه و سلم) من العمر خمس سنين قدمت به السيدة حليمة الى امه لترده اليها فأضلها فى الناس فالتمسته فلم تجده ، فالتمسه فلم تجده ، فأتت عبد الطلب فالتمسه فلم يجده ، فقام عند الكعبة قائلا :-

لا هم اد راكبى محمدا أده الى واصطنع عندى يدا

انت الذى جعلته لى عضدا لا يبعد الدهر به فيسعدا

أنت الذى سميت محمدا

ولاتسعفنا المصادر التى بين ايدينا بشئ من الشعر قيل فى الرسول (صلى الله عليه و سلم)

منذ عودته من ديار بنى سعد الى بعثته الا بأبيات لابى طالب يذكر فيها ما وصاه به بحيرا الراهب وإشارته الى ان النبى المنتظر وما اعلمه من محاولة اليهود قتل النبى (صلى الله عليه و سلم) يقول ابو طالب :

ان ابن أمنة النبى محمدا عندى بمثل منازل الأولاد

راعيت فيه قرابة موصولة وحفظت قيه وصية الأجداد

حتى اذا ما القوم بصري عاينوا لاقوا على شرك من المرصاد

قوما يهودا قد رأوا ما قد رأى ظل الغمام وعز ذى الأكباد

ساروا لقتل محمد فنهاهم عنه وأجهد ، أحسن الإجهاد

وقبيل البعثة بقليل تروى ابيات لورقة بن نوفل نشعر معها بما كانت تحدثه به السيدة خديجة – رضى الله عنها – من أمر الرسول (صلى الله عليه و سلم)

يقول فيها :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا لهم طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا

بما خبرتها من قول قس من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمد سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا

وبعد بعثته (صلى الله عليه و سلم) انقسم الناس الى مؤيدين ومعارضين وحمل كل فرق سلاحا ينافح به وجه الآخر.

وكان الشعر احد هذه الاسلحة بل أمضاها أثرا فى النفوس ، ولذلك نجد شعرا كثيرا لأبى طالب عم النبى (صلى الله عليه و سلم) يدافع به عنى النبى وينافحومن ذلك ما قاله مفتخرا بقومه عبد مناف الذين شدوا أزر الرسول فى الحصار الذى ضربته قريش حولهم :

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها

وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينا علينا فلم تظفر وطاشت حلومها

ومن الملاحظ ان هذه الابيات يغلب عليها طابع الفخر اكثر من المديح النبوى . وهناك قصيدة طويلة تروى أيضا لابى طالب فيها مدحه للرسول (صلى الله عليه و سلم) وهى التى يقول فيها :

اشم من الشم البهاليل ينتمى الى حسب فى حومة المجد فاضل

فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها وزينا لمن والاه رب المشاكل

فمن مثله فى الناس اى مؤمل اذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش يوالى اليها ليس عنده بغافل

لقد علموا ان ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

وثمة ابيات لسيدنا حمزة بن عبد المطلب يحمد الله فيها على إسلامه وينوه فيها بالرسول (صلى الله عليه و سلم) إذ يقول :

حمت الله حين هدى فؤادي الى الإسلام والدين الحنيف

أحمد مصطفى فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف

اذا تليت رسائله علينا تحدر دمع ذى اللب الحصيف

وفى هذه المرحلة نجد قصيدة الأعشى التى يقول فيها :

الم تغمضن عيناك ليلة أرمدا وعادك ماعدا السليم المسهدا

أجدك لم تسمع وصاة محمد نبى الإله حين أوصى وأشهدا

نبى يرى مالا ترون وذكره أغار لعمري فى البلاد وانجدا

اذا انت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ان لا تكون كمثله وان لم ترصد لما كان ارصدا

وهى قصيدة يشك فيها بعض الباحثين ويرى انها منحوله عليه ، ولسنا هنا بصدد مناقشة قضية الانتحال فسواء كانت هذه القصيدة للأعشى ام لغيره فإننا لا نستطيع ان نخرجها من دائرة المديح النبوى .

وفى هذه المرحلة ـ مرحلة الدعوة فى مكة – نجد بعض القصائد والمقطعات لبعض الصحابة المهاجرين الى الحبشة مثل عبد الله بن الحارث الذى يقول عندما وصل الى الحبشة وأمن على نفسه :

كل امرئ من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون

إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الزل والمخزاة والهون

انا تبعا رسول الله واطرحوا قول النبى وعالوا فى الموازين

وفى هذه المرحلة نجد أيضا قصيدة النابغة الجعدى التي تعد من أقدم

ما وصل إلينا من قصائد المديح النبوي والتي يقول فيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

وفى تلك المرحلة لا نكاد نسمع عن أحد من الصحابة فى مكة قال شعرا مدح فيه النبي (صلى الله عليه و سلم) إلا نادرا ، ولعل ذلك راجح الى سرية الدعوة من جانب والحفاظ على الدين والنفس من جانب آخر ، والى تحرج الصحابة رضوان الله عليهم من قول الشعر من جانب ثالث ، ومن الإشعار القليلة التي وصلت إلينا من هؤلاء الصحابة قول عثمان بن مظعون :

رسول عظيم الشأن يتلو كتابه له كل من يبغى التلاوة وامق

فيأرب إني مؤمن لمحمد وجبريل إذ جبريل بالوحي طارق

أما إذا انتقلنا إلى يثرب – دار الهجرة – فإننا نجد الموقف يتغير تماما فالشعر قد كثر واختلفت طبيعته ، واشتهر أكثر من شاعر في مديح الرسول (صلى الله عليه و سلم) وفى الدفاع عن الدين ، فلقد قويت شوكة المسلمين ، وما عاد هناك شئ يخيفهم ، وكان لابد إن يواجه الشعراء المسلمين شعراء الشرك كما واجهة الجنود كفار قريش في المعارك والحروب ، ولم تعد هناك سرية للدعوة ، كما إن موقف الإسلام من الشعر قد ظهر ظهورا جليا . وكان على رأس هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت الذي عرف بشاعر الرسول ، ومن أشهر مدائحه النبوية قصيدته التي يقول فيها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء

فإن أبى ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

ومن القصائد المعروفة الذائعة الصيت في هذا المجال قصيدته التي يقول فيها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

ومن الطبيعى ان يتحدث الشعراء المسلمون عن شخصية الرسول (صلى الله عليه و سلم) فهو أساس الدين وحامل رسالة السماء إلى الأرض والصابر على البلوى ومبدد بجور الشرك ، يقول كعب بن مالك الذي يعلن وجوب طاعة النبي :-

فينا الرسول شهاب ثم نتبعه نور مضئ له فضل علي الشهب

الحق منطقه والعدل سيرته فمن يجبه إليه ينج من تبب

وقد ركز الشعراء فى هذه المرحلة على شجاعة النبى(صلى الله عليه و سلم) وقوة شكيمته ونضاله فى سبيل الحق يقول كعب بن مالك في غزوة الطائف :-

رئيسهم النبى و كان صلبا نقى القلب مصطبرا عزوفا

رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزفا خفيفا

ومن أهم ما وصف به الشعراء النبى صلى الله عليه وسلم الرحمة والعطف والشفقة والعدل والزهد والورع والتقوي ومعظمهما صفات دينية بالإضافة إلى ما استمدوا من بيئتهم كالشجاعة والشهامة والنخوة والكرم وقد مزجوا ذلك كله في قصائدهم التيى مدحوا بها النبى صلى الله عليه وسلم ومما يلفت النظر فى هذه المرحلة أبيات منسوبة إلي العباس بن عبد المطلب وقصيدة بانت سعاد .

أما أبيات العباس فإنها تضيف عنصرا جديدا إلي فن المديح النيوي وهو عنصر النور المحمدى أو ما يسمى بالحقيقة المحمدية يقول العباس مخاطبا النبى صلى الله وعليه وسلم :-

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبقي

وردت نار الخليل مكتتما فى صلبه أنت كيف يحترق

فالعباس يريد أن يقول للرسول صلى الله وعليه وسلم لقد كنت منة قبل هيئتك الجسدية نور لطيفا تنقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية فلقد كنت مع آدم في الجنة ومع نوح في سفينته ومع إبراهيم في ناره ولقد أخذ هذا النور يتنقل حتى ظهر فى صورة جسدية هى صورة النبى صلى الله عليه وسلم .

أما قصيدة كعب بن زهير التى يقول فيها ة:-

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فهي قصيدة جليلة الخطر عظيمة الشأن في تاريخ المدائح النبوية وذلك لما اكتنفها من القصة التي حكيت حولها وهي أن كعبا انشدها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم معتذرا عما بدر منه طالبا العفو من رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنه النبي وألقى عليه بردته ويتمثل خطرها في أن بعض الشعراء قد ادعوا أنهم أنشدوا قصائدهم مناما بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن بعضهم كان يستعصي عليه بيت فيتمه له الرسول أو يغيرها كما غير لكعب قوله "مهند من سيوف الهند " الى "مهند من سيوف الله ".

ويتمثل خطرها أيضا في فن المعارضات والتشطير وأنها أصبحت بمثابة قاعدة يحتذي بها كثير من الشعراء عند مديحهم النبي حيث يبدأ المادح النبوي بالنسيب وينتقل الى الحديث عن الديار الحجازية ثم وصف الرسول وابداء الأسف على التقصير في حقه ثم يتوسل به الى رب العزة سبحانه وتعالى ويرجو ان يكون شافعا له يوم القيامة ثم انها ترجمت الى عدة لغات .

وفي نهاية الحديث عن فن المديح النبوي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن القول بأن هناك مديحا تقليديا سار على الطريقة الجاهلية مع تطعيمه بالمبادئ الاسلامية وآخر مباشرا يمدح فيه صاحبه النبي بلا سابق مقدمات وثالثا تسيطر عليه نغمة الفخر والحماسة ورابعا يختلط بهجاء الأعداء وخامسا ظهرت فيه فكرة الحقيقة المحمدية.

ـ شعرالمعارك الاسلامية زمن الرسول الله صلى الله عليه وسلم:

كانت المعارك الاسلاميه من اهم العوامل التي مكنت للدعوة ونشر الدين وادت الي ازدهار الشعر في عصرالنبوة وقدظهر ابان هذة المعارك الطابع الديني في الشعر الا سلامي. وقد استطاع الشعر في تلك الفترة ان يواكب تلك المعارك ويرد علي مزاعم المشركين ويفندها ويمضي مع هذه الوقائع فيسجل كل ما دار فيها.لقد كان سلاحا من اسلحتها ونغمة عالية من نغماتها لا غناء عنه , ولا عجب في ذلك فالشعر ديوان العرب وسجلهم الحافل بكل ما يدورفي حياتهم, ومن الاجدر

ان يكون سجلا دقيقا لتلك الغزوات الا سلامية العظيمة التي غيرت وجه التاريخ.و الحق ان الشعر في صدر الاسلام لم يترك معركة ولا غزوة الاتحدث عنها, وكان سهاما نافذة في صدور الاعداء ونارا مصبوبة علي هاماتهم وسيوفا مصلتة علي رقابهم.

لقد استطاع الشعر ان يخلد الانتصارات ويعبئ النفوس وتثير الحماس في سبيل الدعوة وحماية الدين الحنيف والدفاع عن الحق.

ولعل اهم المعارك التي شارك فيها الشعر زمن رسول الله(ص) مایاتي:

اولا:معركة بدرالكبرى(سنة2هجري)

كانت معركة بدر الكبرى النصر الاول للمسلمين, وبهذا النصر اعز الله الاسلام واشتد ساعد المسلمين, في هذة المعركة ذاق الكفار قريش طعم الذل وتجرعوا مرارة الهزيمة,ورجعت قريش تاركة فرسانها مصروعين في الربي والشعاب,وقد نشط الشعر فوصف المعركة وصفادقيقا,وتغني بالنصر هجا الاعداء وغيرهم بالهزيمةوطبع بطابع ديني.واذا التمسنا شيئا من هذا الاثر الديني في الشعر الذي قيل في هذه المعركة يمكن ان نري قصيدة حسان التي يذكرفيها اصحاب القليب, يذكر عاقبة المشركين اذايقول: ص45

وخبر بالذى لاعيب فيه بصدق وغير اخبار الكذوب

بما صنع المليك غداة بدر لنا في المشركين من النصيب

يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب

الم تجدوا حديثي كان حقا وامر الله ياخذ بالقلوب

فمانطقوا ولونطقولقالوا صدقت وكنت ذا راى مصيب(1)

ويظهر هذا الاثر الاسلامي في شعر كعب ابن مالك حيث يقول في الرد علـي ضـرار ابن الخطاب:

عجت لامر الله والله قادر علي ما اراد ليس لله قاهر

قضي يوم بدران نلاقي معشرا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

فلنا لقيناهم وكل مجاهد لاصحاب مستبسل النفس صابر

شهدنا بان بالله لارب غيره وان رسول الله بالحق ظاهر

فالجهاد و التوحيد والايمان بقضاء الله وقدره, كلها معان اسلامية خالصة.

والحق ان كعبا لم يقـف عنـد ذلـك بـل اخـذ يتحـد ث عمـا اصـابه المشـركين مـن ذل الهزيمة واوضح انهم قتلوا بسبب كفرهم بالله

واشراكهم به,وانهم سيكونون وقود النار في يوم القيامة حيث يقول:

فكب ابو جهل صريعا لوجهه وعتبه قدغادرنه وهو عاثر

فامسوا وقود النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر

لامر اراد الله ان يهلكوا به وليس لامر حمه الله زاجر(3)

وقد تحدث الشعر في هذة المعارك عن فضـل الله علـي المـؤمنين وتسـديد خطـاهم, ونصرهم علي المشركين رغم قلت عدد المسلمين وكثـره المشـركين.وقد اسـتطاع حسان ان يصوغ هذه المعاني في ابيات له متاثر بقـول الله تعـال"كم مـن فئـه قليلـة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " اذ يقول :

-فما نخشي بحول الله قوما وان كثروا واجمعت الزحوف ص46

اذا ما البوا جمعا علينا كفانا حدهم رب رءوف

-سمونا يوم بد ر بالعوالي سراعا تضعضعنا الحتوف

-لقيناهم بها لما سمونا ونحن عصابه وهم الوف

ومهما يكن من امر فان الشعر الذي قيل في يوم بدر كان موفقا في تصوير المعركه ولكن لم يبلغ به التوفيق ان يدل الدلاله الكامله لسوره الانفال فالمعاني التي تناولها الشعر كانت عامه , ولم يصل ذلك الشعر الي قمه المعاني التي جاءت في هذه السوره الكريمه .

ثايا :معركة أحد (سنه 3 هـ)

بعد موقعه بدر جاءت قريش لتثار لنفسها بقضها وقضيضها , بخيلها ورجلها , تجلب علي المسلمين جلبا .

ودارت رحي المعركه عند جبل احد , وكان ما كان من امر هذا اليوم فهو يوم المشركين علي المسلمين , انه يوم محنه وبلاء فقد استشهد فيه عدد غير قليل من المسلمين منهم اسد الله حمزه بن عبدالمطلب عم النبي صلي الله عليه وسلم , فذكر الشعر لذلك وبكي القتلي ورثي لشهداء ورد علي شعر المشركين فحينما افتخر هبيره بن ابي وهب بقصيده يقول فيها :

سقنا كنانه من اطراف ذي يمن عرض البلاد علي ما كان يزجيها

قالت كنانه : اني تذهبون بنا قلنا النخيل فاموها ومن فيها

رد عليه حسان قائلا :

سقتم كنانه جهلا من عداوتكم الي الرسول فجند الله مخزيها

اورد تموها حياض الموت ضاحيه فالنار موعدها والقتل لاقيها

-هلا اعتبرتم بخيل الله اذ لقيت اهل القليب ومن اردينه فيها

والحق ان النقائض التي دارت حول حرب احد كثيره , ولعل ذلك راجع الي ان نصر قريش قد اثلج صدور شعرائها , فلقد عدوا هذه الغزوه انتقاما شافيا

لهزيمتهم في بدر , فراحوا يرسلون القوافي في التغني بهذا النصر والشماته بالمسلمين , ولكن شعراء المدينه كانوا لهم بالمرصاد , يجيبون عليهم وينقضون شعرهم , مؤكدين ان الهزيمه لن تنال من قوتهم او تفت في عضدهم واصرارهم علي دحر الشك .

ومن تلك المناقضات ابيات لابي سفيان بن حرب يتشفي فيها بالمسلمين ويتباهي بقتل من قتل وعلي راسهم حمزه بن عبد المطلب , يقول ابو سفيان:

وسلي الذي قد كان في النفس انني*** قتلت من النجار كل نجيب

-ومن هاشم قرما كريم ومصعبا *** وكان لدي الهيجاء غير هيوب

-ولو انني لم اشف نفسي منهم ***لكانت شجا في القلب ذات ندوب

فاجابه حسان قائلا:

ذكرت الكروم الصيد من ال هاشم *** ولست لزور قلته بمصيب

اتعجب ان اقصدت حمزه منهم ***نجيبا وقد سميته بنجيب

الم يقتلوا عمرا وعتبه وابنه ***وشيبه والحجاج وابن حبيب

وتظهر المعاني الدينيه عند كعب بن مالك في قصيده يستغرق اكثرها ذكر الحرب وحسن البلاء والصبر يرد فيها علي هبيره بن ابي وهب قائلا : ص 48

وفينا رسول الله نتبع امره *** اذا قال فينا القول لانتطلع

وقال رسول الله لما بدوا لنا *** ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا

وكونوا كمن يشري الحياه تقربا*** الي ملك يحيا لديه ويرجع

ضربناهم حتي تركنا سراتهم ***كانهم بالقاع خشب مصرع

شددنا بحول الله والنصر شده *** عليكم واطراف الاسنه شرع

وياخذ كعب في مجادله الكافرين في قصيده اخري مجادله من كان علي بينه , وذلك حق , فقد كان ذا عقيده ثابته , ودين راسخ , وقد ذهب يوضح للكافرين ان الحرب سجال والايام دول, وان الغلبه للدين الاسلامي لا شك في ذلك حيث يقول في الرد علي عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب :

-ان تقتلونا فدين الحق فطرتنا * والقتل في الحق عند الله تفضيل**

-وان تروا امرنا في رايكم سفها ***فراي من خلاف الاسلام تضليل

-تلقاكم عصب حول النبي لهم*مما يعدون للهيجا سرابيل**

-كنا نؤمل اخراكم فاعجلكم* منا فوارس لا عزل ولا ميل**

ولم ينس الشعراء رثاء الابطال الذين استشهدوا في سبيل الحق وضحوا بانفسهم من اجل اعلاء كلمه التوحيد . وعلي راس هؤلاء الابطال حمزه بن عبدالمطلب الذ يرثيه حسان قائلا :

-فان تذكروا قتلي وحمزه منهم*قتيل ثوي لله وهو مطيع**

فان جنان الخلد منزله بها* وامر الذي يقضي الامور سريع**

وقتلاكم في النار افضي رزقهم ***حميم معا في جوفها وضريع

ويرثيه عبد الله بن واحه قائلا:

بكت عيني وحق لها بكاها ***وما يغني البكاء ولا العويل

-علي اسد الاله غداه قالوا* احمزه ذاكم الرجل القتيل**

اصيب المسلمين به جميعا * هناك وقد اصيب الرسول**

-عليك سلام ربك في جنان*مخالطها نعيم لا يزول**

وبهذه الطريقه صور الشعراء احداث احد , وقد ظهرت المعاني الاسلاميه في سوره ترديد لايات وتراكيب قرانيه , وتمثل الشعر اغراضا عديده كالفخر والهجاء والمناقضات والرثاء الي جانب ذلك.

ثالثا :بدر الثانيه (شعبان سنه 4 ه)

كانت هذه الغزوه في السنه الرابعه للهجره , وكان الموعد بدرا , ولكن الكفار لم يفوا بما وعدوا ,فكفي الله المؤمنين القتال , وفي ذلك يقول عبدالله بن رواحه مقرعا المشركين وعلي راسهم ابوسفيان الذي اخلف الموعد ولم يات الي بدر :

-وعدنا ابا سفيان بدرا فلم نجد***لميعاده صدقا وما كان وافيا

-فاقسم لو وافيتنا فلقيتنا **لابت ذميما وافتقدت المواليا

-تركنا به اوصال عتبه وابنه *** وعمرا اباجهل تركناه ثاويا

-فاني وان عنفتموني لقائل ***فدي لرسول الله اهلي ومواليا

رابعا: الخندق وقريظه (سنه5)

كان حصار الخندق سببا في اجلاء بني قريظه من المدينه والقضاء علي ذلك الشر المجاور ومعروف ان نفرا من اليهود من بني النضير وبني وائل كانوا قد البوا الاحزاب وحرضوا قريشا وغطفان علي حرب الرسول صلي الله عليه وسلم , وكانت قيظه قد ابرمت عهدا مع النبي صلي الله عليه وسلم لكنها نقضته وخرجت عليه , ولما كان نصيب الاحزاب الفشل كان نصيب بني قريظه القتل والذل , ولقد لقيا في الخندق شعر كثير من كلا الجانبين ,يقول ضرار بن الخطاب :

-فلولا خندق كان لديه *** لدمرنا عليهم اجمعينا

-ولكن حال دونهم وكانوا ***به من خوفنا متعوذينا

فيجيبه كعب بن مالك قائلا

-نقاتل معشرا ظلموا عقوا*وكانوا بالعداوه مرصدينا**

-نعاجلهم اذا نهضوا الينا ***بضرب يعجل المتسرعينا

ويعلم اهل مكه حين ساروا ***واحزاب اتوا متحزبينا

بان الله ليس له شريك* وان الله مولي المؤمنينا**

ولحسان بن ثابت قصائد ومقاطعات في بني قريظه يقرعهم ويعيرهم بما اصابهم , ويبين لهم انهم ضلوا وبغو حينما فعلوا فعلتهم فكان هذا جزاءهم , يقول في احدي مقطوعاته :

-تعاهد معشر ولوا بكفر ***وليس لهم ببلدتهم نصير

-هم اوتوا الكتاب فضيعوه ***فهم عمي من التوراه بور

ويقول في مقطوعه اخري :

-لقد لقيت قريظه ما ساءها*وما وجدت لذل من نصير**

-اصابهم بلاء كان فيهم*سوي ما قد صاب بني النضير ص51**

غداة اتاهم يهوي اليهم*رسول الل كالقمر المنير**

-تركناهم وما ظفروا بشيء ***دماءهم عليهم كالعبير

وهكذا استطاع الشعر ان يساير المعركه ويجابه الخصوم ويذكر بساله المؤمنين واخلاصهم لرسول الله صلي الله عليه وسلم ,لكنه لم يتناول كل مل تناولته الايات الكريمه في امر الاحزاب من سوره الاحزاب. ص 52

ـــ حسان بن ثابت وقضية الضعف فى شعره:

التعريف به:

هو حسان لن ثابت بن المنذر ينتهى نسبة لى قبيلة الخزرج وامه:الفريعة بنت خنيس الخزرجية فهو خزرجى الاب والام ويمت بصلة قرابة الى رسول الله عليه وسلم فهو من بنى النجاراخوال النبى عليه السلام وكنيته ابو الوليد وابو الحسام وابو عبد الرحمن

عاش حياة طويلة فلقد قيل انه عاش ستين عاما قبل اسلامه وستين اخرى بعد اسلامه ويقصر البعض عمره الى ثمانين عاما نصفها فى الجاهلية ونصفها فى الاسلام كان فى الجاهلية كثير التردد على قصور الغساسنة فى الشام يمدحهم ويطلب رفدهم وينال عطاءهم وخاصة جبلة بن الايهم اخر ملوك الغساسنة

وكا ن على صلة بالنعمان بن المنذر ابى قابوس ملك الحيرة وكان بينه وبين شاعرى الاوس:

قيس بن الخطيم وابن الاسلت عداوة وله معهما مناقضات شعرية وكان يذهب الى سوق عكاظ وله صحبة مع النابغة وكان يعرض عليه شعره ولكن رغم تلك الصحبة فقد مع النابغة وكان يعرض عليه شعره ولكن رغم تلك الصحبة فقد قدم النابغة الاعشى على حسان.

وقد كرس حسان جانبا من شعره فى الجاهلية للتكسر وجانبا اخر للمنافحة عن قوم وفى هذا الجانب الاخير شعر كثير فى الهجاء ضد قيس بن الخطيم .

اسلم حسان يوم ان هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وانبرى هو وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة للرد على الشعراء المشركين وللدفاعن ال النبى الكريم والدين الاسلامى الحنيف وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على قول الشعر ويدعوا له .

وقد استحق سيدنا حسان ان يلقب شاعر الرسول لانه وقف وقفة المسلم الملتزم الذى حسن اسلامه وجاهد جهادا مستميتا دفاعا عن النبى وعن الدعوة الاسلامية وعاش

يناضل بلسانه ضد اعداء الاسلام من مشركين ويهود واخذ يمدح النبى والمسلمين ويعلى من راية الاسلام

والحق ان حسان رضى الله عنه قد اوقف قريحته وبلاغته على الاسلام والحق ان حسان رضى الله عنه قد اوقف قريحته وبلاغته على الاسلام يرد عنه كيد الكائدين ويذود عنه حقد الحاقدين ويمدح النبى الكريم ويتغنى بوقائع المسلمين ويدعو القبائل الى اعتناق الدين الحنيف واذا هزم المسلمون استطاع ان يحول الهزيمة الى مجال للفخر بما لديه من حنكة وتجربة وشاعرية لقد ابلى حسان فى ذلك كله بلاء عظيما ومن اجل هذا عرف بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وكان شعره رضى الله عنه اشد وقعا على المشركين ولذا قال صلى الله عليه وسلم :امرت عبد الله بن رواحة (يعنى امر بهجاء قريش)فقال واحسن وامرت كعب ابن مالك فقال واحسن وامرت كعب ابن مالك فقال واحسن وامرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى وقال عليه السلام له شن الغارة على بنى عبد مناف فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام ومن ثم كان لحسان مكانة مرموقة فى الاسلام فلقد جله النبى صلى الله عليه وسلم وقدره ورفع من منزلته واعلى من قدره اذ لم يتخلى حسان لحظة فى الدفاع عن حوزة الاسلام ومما يدلنا على اكرام النبى له وتقديره اياه انه جعل منبرا فى المسجد ينشد عليه الشعر وكان يقسم له فى الغنائم بعد عودته من الغزوات كأى محارب شارك فيها بسيفه واهدى له بستانا كما اهدى سيرين اخت مارية القبطية وهى التى ولدت له ابنه عبد الرحمن كما اهدى له بيرحى وهو قصر بالمدينة كان لأبى طلحة وكان الخلفاء والصحابة ويقدرونه ايضا ويذكرون له دوره الخطير الذى قام به فى خدمة الاسلام ولذلك فرضوا له العطاء واجزلوه ووفروا له اسباب الحياة الهانئة الهادئة .

ـ شعره :

ينقسم شعر حسان قسمين :جاهلى واسلامى وقد اجاد فيهما واحتل مكانه مرموقة والقسم الاسلامى هو الذى يهمنا والحق انه اجاد فيه واتقن وتفوق وخاصة فى الهجاء والمناقضات والشعر الحربى والمديح والرثاء وشعر الدعوة الاسلامية

ان هذا القسم هو ميدان جهاده الحقيقى فى سبيل الدعوة الاسلامية وهو الذى جعل لحسان مكانة خاصة حظيت بهالة من التقدير والاحترام وله فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد جليلة تعد من عيون التراث الشعرى ولعل من اشهر مدائحه النبوية قصيدته التى يقول فيها:

عندما ان لم تروها تثير النقع موعدها كداء

يبارين الاعنة مصغيات على اكنافها الاسل الظلماء

وقال لله قد ارسلت عبدا يقول الحق ان نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء

ومن مدائحه التى اشتهر بها قوله فى يوم بدر :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود

مبارك كضياء البدر صورته ما قال كان قضاء غير مردود

ومن مدائحه المشهورة قصيدته التى يرد فيها على شاعر الوفد التميمى والتى يقول فيها :

ان الذوائب من فهر واخواتهم قد بينوا سننا للناس تتبع

يرضى بها كل ما كانت سريرته تقوى الاله وبالامر الذى شرعوا

اكرم بقوم رسول الله قائدهم اذا تفرقت الاهواء والشيع

ويلحظ على مدائح حسان انها لم تتخلص تماما من طابع المديح الجاهلى لغة ونسقا الا نادرا فهو فى الاولى يقف على الديار ويرنوا الى الاطلال متحسرا كفعل شعراء الجاهلية اذ يقول فى مطلعها :

عفت ذات الاصابع فالجواء الى عزراء منزلها خلاء

ديار من بنى الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء

وفى القصيدة الثانية نجد الحماسة والفخر والاشادة بالبطولة وليست هذه القصيدة فحسب هى التى يعلن فيها الفخر بالبطولة بل نرى ذلك فى قصائد اخرى وفى القصيدة الثالثة لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم هو محور المديح بل الانصار قوم الشاعر وانما جاء مديح النبى صلى الله عليه وسلم عرضا

ورغم ذلك فإننا نجد صورا اسلامية يستمدها الشاعر من الدين الاسلامى مبينا من خلالها فضل النبى عليه السلام وداعيا الى اعتناق الدين الكريم ومبادئه وذلك كما نرى فى قوله :

اعنى الرسول فإن الله فضله على البرية بالتقوى والجود

واف وماض شهاب يستضاء به بدر انار على كل الاماجيد

وهو فى تضاعيف هذا المديح يتعرض لهجاء المشركين ردا على هجائهم النبى صلى الله عليه وسلم وحين يفعل ذلك تختلط عنده المعانى الجاهليه والإسلامية

وقد اتخذ هجاؤه المشركين طابع التعبير بالهزائم والتنديد بالمخازى على الطريقة الجاهلية وامتزج ببعض الصور والمعانى الاسلامية وذلك كما تقرأ فى قوله يوم بدر:

وعلونا يوم بدر بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل

وتركنا فى قريش عورة يوم بدر واحاديث مثل

وقتلنا كل رأس منهم وطعنا كل حجاج رفل

وهو فى اثناء رده على المشركين يعلن انه فداء الرسول صلى الله عليه وسلم محتسبا الاجر عند الله عز وجل وفى هذا يقول مخاطبا ابا سفيان :

الا ابلغ سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن ابى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قضية الضعف فى شعر حسان :

ولكن رغم ذلك كله فإن ثمة دعوة باطلة مؤداها ان شعر حسان الاسلامى قد ضعف واصابه الوهن والركاكة .

والحق ان هذا الشعر الاسلامى لدى حسان لم يضعف ولم تصبه الركاكة ولرد هذه الدعوة الباطلة وتفنيدها يمكن القول :

1- ان شعر حسان الاسلامى قد اصابته الرقة ولم تصبه الركاكة وقد حاول حسان تعليل هذه الظاهرة الرقة فى شعره الاسلامى حينما سئل عنها فردها الى ان الاسلام يدعوا الى الخيروالحق

وقد قيل له لان شعرك او هرم يا ابا الحسام فأجاب : ان الاسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب وكأنما بذلك يرد على الاسمعى الذى جاء فيما بعد وتفرد بهذه المقولة :الشعر نكد بابه الشر وفى رواية ؟الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل فإذا ادخل فى الخير ضعف ولان هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره وفى رواية الشعر: اذا ادخلته فى باب الخير لآن ألا ترى ان حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره فى باب الخيرمن مراثى النبى وحمزة وجعفر وغيرهم لأن شعره وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرؤ القيس وزهير والنابغة ولكن ماذا يقصد الاصمعى الذى تفرد الذى تفرد بهذه المقولة ؟

هل يقصد بها السهولة والتخلى عن بعض ما فى الشعر الجاهلى من الفاظ غريبة او اسلوب وعر؟

ان كان كذلك فليس ذلك بعيب بل انه دليل على تأثر حسان ببيئته وبإسلوب القرأن الكريم السهل الناصع والا كيف سيظل على على شئ من الفظاظة والجلافة وهو الانسان المسلم الملتزم بتعاليم دينه .

وان المقصود بالليونة الضعف والهبوط وانحدار المستوى الفنى :فإن ذلك غير صحيح لان شعر حسان ليس كله رثاء بل ان اقل ما فيه هو الرثاء واذا اتفقنا مع الاصمعى على هذا الامر فمعنى ذلك ان الشعر الاسلامى كله قد انتهى الى الهبوط والسقوط وهذا ما لم يقل به احد الا المضللون وربما كان حكمه على شعر منحول على حسان :

ومن الذى يقول ان الشعر نكد وانه يقوى فى الشر ؟ان هذه دعوى مفردة وكلمة لم يقلها الا الاصمعى ولم يتابعه عليها احد مما يجعله مخالفا لاجماع اهل اللغة والادب فمقياسه مقياس شخصى لانه كان مولعا بالغريب من اللغة هذا بالاضافة الى ان حسان قد خاض فى موضوعات جديدة لم يألفها الشعراء العرب من قبل كما سنشير الى ذلك فيما بعد ومقولة الاصمعى تخالف اقوال العلماء والنقاد وارائهم فى شعر حسان ان المسألة كلها تعود الى ان الاسلام قد غير من طبيعة الحياة الجاهلية القاسية المملوءة بالفظاظة والجلافة وقضى على جوانب الشر فيها وهى الجوانب التى يطلبها اهل الصحراء ويريدون ان ينمو الشعر فى ظلها .

2-يرى البعض ان الضعف فى شعر حسان مرده الى كثرة الارتجال وسرعة الاستجابة للمواقف وهو الداعية للاسلام والمؤرخ للاحداث وهى أحداث سريعة متلاحقة ولذلك كان حسان مضطرا الى الاسراع فى العمل الفنى ليلاحق سرعة الاحداث ولم يجد الفرصة الكافية للتجويد الفنى فى عمله او الاطالة فيه ولذلك نرى الدكتور : سيد حنفى حسنين يقول واهم ما يلاحظ على معظم شعرحسان الاسلامى انه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لان ظروفه

تـدفع الشـاعر الـى موضـوعه مباشـرة دون تقـديم وكانـت الحيـاة حـول حسـان وبـين الرسول والمسلمين تقتضى منه ان يكون سريعا فى مقاومة المشركين بفنه حتى يبطل كيدهم ويرد غوائلهم كذلك كانت الاحداث تجرى بسرعة لا تترك للشاعر فرصـة ان يتأمل ويفكر لينظم وانما تدفعه دفعا لان يلاحقها بنفس سرعتها ويؤكد على هذا الرأى د.طارق سعد شلبى حيث يقول "لم يلتزم مذاهب واتجاهـات غيـره مـن الشـعراء ولـم يعمد الى التكلف فى شعره ولكنه يرسله كما توحى به القريحة وكثيرا اضطرته بعض المواقف الى الارتجال.

3-عبر حسان عن موضوعات ومعان جديدة لاعهد لـه وللشـعراء بهـامن قبـل وعبـر عن اشياء لم تعرفها الحياة العربية ولم يتحدث عنها الشعراء السابقون فهو الرائد فـى هذا المجال ولابد للرائد منهنات ولم تكن امامه نمـاذج يحتـذيها او يلقـدها والحـق انـه خاض تجربة خطيرة لم يتعرض لهـا شـاعر مـن قبـل وكـان عليـه ان يصـوغ نمـاذج جديده بكرا فى الشعر لم يألفها أحد قبله ومن ثم كان من البدهى الا تستقيم له مقومات الصناعة الفنية الاستقامة الكاملة وكان لابد ان تتعثر قدماه بعض الشئ

4-يعتقد البعض ان شعر حسان قد اختلط بأشـعاره غيـره مـن الانصـار مثلكعـب ابـن مالك وعبد الله بن رواحه وغيرهما .

5-يرد البعض الضعف فى شعر حسان الى كثرة ما دخله من وضع وانتحال وما دس عليه ففى الديوان ما يقرب من أربعمائة بيت منحولة عليـه فشـعر حسـان لـم يضـعف بعد الاسلام وانما الضعيف فيه هو الشعر المنتحل عليه ومن تلك الاشعار الموضوعة ما صنعته قريش وما حمـل عليـه مـن شـعر مملـوء بـالغيظ علـى قتلـه عـثمن ليظهـر الامويون ان شاعر الرسول كان منحازا الى صـفهم وليغسـلوا عـار الأشـعار والتـى نظمعا فى هجاء أسرتهم وقد تنبه ابن سلام الى ذلك حيث يقول حمل عليه مالم يحمـل على احد لما تعاضـهت قريش واستتبت ووضعوا عليه اشعارا كثيرة لاتنقى .

6-وقد اعترف الاصمعى بذلك حيث يقول تنسب اليه اشـعار لا تصـح عنـه ولنـا بعـد ذلك كله ان نتساءل :

7-كيف يضعف شعر حسان فى الاسلام وهو المدافع عنه ،وقد اعترف الكفار بقوة شعره ومدى تاثيره فيهم ،ولا ادل على ذلك من انه حينما رد شاعر الوفد التميمى قال الاقرع بن حابس ان هذا الرجل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم لمؤتى له ميسر له ولشاعره اشعر من شاعرنا

8-كيف يضعف شعر حسان وقد كانت قريش تفزع منه فزعا شديدا وتهابه؟

9-كيف يضعف شعر حسان والرسول يجنده للرد على الكفار ويشهد على ذلك قوله شفى واشتفى ؟كيف يضعف شعر حسان وهو الذى استقى من القرأن الكريم وارتكز على تعاليم الاسلام وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم .هل ضعف لانه غير من شعره ليتلاءم مع المنهج الاسلامى والشريعة السمحة الغراء ؟

هل ضغف لانه استخدم معيارا جديدا وميزانا مختلفا وهو المعيار الاسلامي ؟

هل ضعف لأنه تأثر بالاسلوب البنياني المعجز والاغراض النبيله؟ كيف يضعف والحارث بن عوف يستجير برسول الله صلي الله عليه وسلم ويستعيذ به من شعر حسان قائلا "اكففه عني يا محمد وأودي اليك ديه الخفاره .....انا عائد بك من شره فلو مزج البحر بشعره مزجه

ان دعوي ضعف شعر حسان الاسلامي لا تستند علي ادله منطقيه قاطعه وهو رأي غير منصف ويكفي ان نسوق قول ابن خلدون في هذا المقام اذ يقول ... ان كلام الاسلاميين من العرب اعلي طبقه في الابلاغه وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمربن ابي ربيعه .....،..... ارفع طبقه في البلاغه من شعر النابغه وعنتر وابن كلثوم ....،..... والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقه البصير

ـــ رأي العلماء والنقاد في حسان:

1- يروي الاصفهاني عن ابي عبيده قوله عن حسان "فضل حسان علي الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهليه وشاعر النبي صلي الله عليه وسلم في النبوة

وشاعر اليمن كلها في الاسلام واجتمعت العرب علي أن حسان اشعر اهل المدر .... واتفقت العرب علي ان اشعر اهل المدر اهل يثرب وعلي ان اشعر اهل يثرب حسان بن ثابت

2- حينما تحدث ابن سلام عن شراء المدينه قال "اشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده

3- قال المبرد "واعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان فانها يعدون سته وكلهم شاعر"

4- يشهد الاصمعي نفسه لحسان فيقول "حسان فحل من فحول الجاهليه "

5- قال الحطيئه :ابلغوا الانصار ان شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتي ماتهر كلابه لايسألون عن السواد المقبل

6- يضع له ابوزيد القرشي قصيده علي رأس المذهبات

7- قال الاصفهاني "حسان فحل من فحول الشعراء" وقال ان شعره كان من مفاخر الانصار علي الشعراء

8- يشهد له النابغه الذبياني والاعشي بقولها "انك لشاعر

9- يشهد له النقاد بان بيته الذي يقول فيه :

ما ان مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

قد سبق به كل الشعراء الي هذا المعني ولم يأت بعده من زاد فيه

ـ كعب بن مالك:

ـ التعريف به :

هو كعب بن مالك بن ابي كعب عمربن سواد بن غنم بن كعب بن سلمه وعقبي مدني أحدي (وسلمي نسبه الي قومه بني سلميه وعقبي نسبه الي العقبه حيث كان كعب

ممن شهدوا بيعه العقبه الثانيه وبايعوا النبي صلي الله عليه وسلم والاحدي نسبه الي احد فلقد شهد احدا وابلي فيها بلاء حسنا

وكنيته : ابو عبدالله و ابوعبدالرحمن والكنيه الاولي هي التي اجمع عليها المؤرحون فلقد كناه بها النبي صلي الله عليه وسلم

ولد كعب في المدينه المنوره ولا نعلم علي وجه اليقين سنه مولده بيد اننا اذا عرفنا سنه وفاته كانت سنه خمسين للهجره وانه عاش سبعه وسبعين سنه فانه يمكن القول انه ولد سنه سبعه وعشرين قبل الهجره تقريبا كان كعب من القله الذين يعرفون القراءه والكتابه في الجاهليه وقد تفتحت مواهبه الشعريه منذ جاهليته وذاعت شهرته في مجال الشعر حتي بلغت مسامع النبي صلي الله عليه وسلم وكان بالاضافه الي ذلك راويا للحديث النبوي الشريف "روي ثمانين حديثا

كان كعب قوي الحجه صادق البرهان واضح البيان له قدره علي الجدل والاقناع ولاغرابه في ذلك فهو من اسره نابهه الشأن مشهوره بالشعر والفروسيه فلقد كان ابوه فارسا شاعرا وعمه قيس كان فارسا شاعرا ايضا واما أمه (ليلي بنت يزيد بن ثعلبه) فهي من بني سلمه المعروفين بالفروسيه والشجاعه وشهد له النبي بذلك فقال انت تحسن صفة الحرب

والحق ان بيت كعب قد عرف بالشعر وهذا ما يشير اليه الاصفهاني في قوله " ولكعب بن مالك اصل اصيل وفرع طويل في الشعر : ابنه عبد الرحمن شاعر وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن بن عبدالله شاعر ومعن بن زهير بن كعب شاعر وكلهم مجيد مقدم وكان والده شاعرا في الجاهليه وعمه قيس شاعرا ايضا

كان كعب من الانصار الاوائل الذين دخلوا الاسلام واحد الثلاثه والسبعين الذين شهدوا بيعه العقبه الثانيه (السنه الثالثه عشره من البعثه وبايعوا النبي صلي الله عليه وسلم)

ـ مكانته عند النبي :

لما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم الي المدينه توثقت الصله بينه وبين كعب وازداد كعب من النبي قربا وقد عهد له صلي الله عليه وسلم بعدد من المهمات منها ارساله لتخطيط حدود حرم المدينه وتوليه صدقات أسلم وغفار سنه 9ه ومنها مناداته في حجه الوداع في الناس ان رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : ان ايام مني ايام كلها اكل وشرب وذكر الله

وقد شهد كعب مع النبي صلي الله عليه وسلم الغزوات والمشاهد كلها الا بدرا وتبوكا وقد اخي النبي بينه وبين طلحه بن عبد الله وقيل الزبير بن العوام

لقد احتل كعب منزله عاليه عند الرسول صلي الله عليه وسلم فلقد كان فارسا مغوارا وبطلا شجاعا في الغزوات التي اشترك فيها وكان شاعرا مجيدا مدافعا عن النبي والمسلمين وهو احد الشعراء الثلاثه الذين كونوا فريقا مدافعا عن النبي والمسلمين (حسان وكعب وعبدالله ابن رواحه) وقد تميز شعره بتخويف الكفار من الحرب وكان النبي صلي الله عليه وسلم يحض هؤلاء الشعراء الثلاثه علي الرد علي المشركين وتفنيد مزاعمهم ويري ان جهادهم بالكلمه لا يقل عن الجهاد بالسيف

ومما يدلنا علي المكانه التي تبوأها عند النبي صلي الله عليه وسلم انه طلب منه مره ان ينشد الشعر فانشده وكلما أنشده يقول له النبي صلي الله عليه وسلم انه طلب منه مره ان ينشد الشعر فانشده وكلما انشده يقول له النبي "ايه" ومره أخري يقول له النبي صلي الله عليه وسلم "يا كعب ما نسي ربك وما كان منسيا بيتا قلته ...قال كعب وما هو يا رسول الله ؟ فقال انشده يا ابا بكر فقال : الذي تقول فيه

زعمت سخينه ان ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

وكان كعب يسر بتقويم النبي صلي الله عليه وسلم ونقده لشعره بل كان يفتخر بذلك فيقول : ما اعان رسول الله صلي الله عليه وسلم أحدا في شعره غيري كان كعب شاعرا مجاهدا بلسانه ومحاربا بسيفه لم يتخلف عن غزوه من الغزوات كما ذكرنا الا

غزوتي بدر وتبوك اما بدر فلأنه لم يكن هناك نفير للحرب فلقد جمع الله بين المسلميين والاعداء علي غير موعد ولذلك لم يعاتبه النبي صلي الله عليه وسلم

اما تبوك فقد تخلف عنها دون عذر مقبول فلما عاد النبي صلي الله عليه وسلم من تلك الغزوه ـ وكان قد تخلف عنها بضعه وثمانون رجلا ـ جاءوا يعتذرون للنبي والنبي يستغفر لهم الا كعبا وهلال بن أميه ومراره بن الربيع الذين صدقوا الحديث ولم يتمحلوا الاسباب فأمر النبي صلي الله عليه وسلم بمقاطعتهم حتي مرت عليهم خمسون ليله ضاقت فيها عليهم الارض بما رحبت واذا بالوحي ينزل علي النبي صلي الله عليه وسلم بقرآن يتلي :" لقد تاب الله علي النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوا في ساعه العسره من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم وعلي الثلاثه الذين خلفوا حتي اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم"

اتسم كعب بعده صفات اهمها الايمان والصدق والشجاعه والجرأه والكرم والسماحه والشهامه والاستعلاء علي الدنيا وعدم الغرور بمباهجها ومتاعها كما اتسم بالحلم والعلم والفصاحه وحضور البديهه والذكاء واللباقه وحسن التصرف وحصافه الرأي وبعد النظر والادب والجم والوفاء والانصاف

ـ مكانته الأدبية:

احتل كعب مكانه ادبيه رفيعه فهو شاعر مخضرم وهو احد الثلاثه الذين أوقفوا شعرهم علي الدفاع عن الاسلام والرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وهو يحتل المرتبه الثانيه بعد حسان في الشعر وقد جعله ابن سلام كذلك وقال عنه " وكعب بن مالك شاعر مجيد " وشهد له الرسول صلي الله عليه وسلم حينما دعاه مستنشدا شيئاً من شعره أذ قال له أنت تحسن صفه الحرب " وقال مره "انك لحسن الشعر " ومما يدلنا علي مكانته الادبيه ان معاويه جلس مره فقال لجلسائه أخبروني بأشجع بيت وصف به رجل قومه فقال روح بن زنباع :قول كعب مالك :

نصل السيوف اذا قصرنا بخطونا قدما ونلحقها اذا لم تلحق

ويقال ان افخر بيت قالته العرب هو قول كعب:

وببئر بدر اذيري وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

ويشهد له الرسول مره علي مدي تأثير شعره في المشركين اذ يقول والذي نفسي بيده لهي اشهد عليهم من رشق النبل وسبب ذلك القول ان الرسول صلي الله عليه وسلم كان في سفر فشد " ناقته بزمامها حتي وضعت رأسها عند مقدمة الرحل اذ قال ياكعب بن مالك : احد بنا فقال كعب :

نخبرها ولو **قضينا من تهانه كل حق وخيبرثم اجمعنا السيوفا**

نطقت لقالت قواطعن درسا او ثقيفا

فقال النبي صلي الله عليه وسلم :هذا القول : والذي نفسي بيده لهي اشد عليهم من رشق النبل و لما سمعت دوس شعر كعب هذا أسلمت فرقا " خوفا " وسماه ابن كثير " شاعر الاسلام

ـ موضوعات شعره :

نظم كعب بن مالك في اغراض كثيره اهمها ما يأتي :-

1- الفخر :-

الفخر عنده نوعان :ذاتي فردي وجماعي والذاتي هو الذي تغني فيه بخصاله واخلاقه ونسب وحسن شجاعته وهو ابيات قليله في شعره ومن ذلك قوله :

انا ابن مباري الريح عمرو بن عامر نموت الي قحطان في سالف الدهر

وقوله الذي رد فيه علي :مرحب اليهودي يوم خيبر :-

قد علمت خيبر اني كعب مفرج الغما جرئ صلب

اذا شبت الحرب تلتها الحرب معي حسام كالعقيق عضب

واما الفجر الجماعي فلقد كان فيه عالي الصوت فخور بالمسلمين وانتصاراتهم علي المشركين متغنيا بالامجاد الجماعيه مصورا شرف المسلمين ومشيدا بشجاعتهم وايمانهم مسجلا صفحات جهادهم متحدثا عن دور النبي صلي الله عليه وسلم وموضحا دور الانصار في المعارك الاسلاميه يقول :-

وفينا رسول الله والاوس حوله له معقل منهم عزيزوناصر

وجمع بني النجار تحت لوائه يمشون في الماذي والنفع ثائر

ويقول مفتخرا بانتصار المسلمين في الجوله الاولي يوم احد (وقيل في يوم بدر)

سآئل قريشا غداه السفح من احد ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب

كنا الاسود وكانوا النمر اذا زحفوا ما ان نراقب من آل ولانسب

ويجب ان نلاحظ ان افتخار كعب بقوه المسلمين وشجاعتهم هو افتخار بصدق عقيدتهم وقوه ايمانهم وان هذه الشجاعه انما هي مستمده من الايمان بالله عزوجل ولذلك نجده يتخذ من نصرالله للمسلمين مجالا لفخره علي المشركين ليبين لهم قدرة الله سبحانه وتعالي وصدق هذا الدين الحنيف

2- المدح:-

جاء المدح في شعركعب قليلا وكان معظمه موجها للنبي صلي الله عليه وسلم ممتزجا بالفخر بالرساله والمحمديه وبحب الرسول عليه السلام ولعل اهم ما مدح كعب به النبي صلي الله عليه وسلم هو الدور الذي قام به من جمع شتات العرب ولم شملهم وتوحيد صفهم وانقاذهم من براثن الشرك وانتشالهم من وهدة الضلال والفساد الي طريق الخير والرشاد واصلاح أمرهم بالاضافه الي ما اتسم به النبي صلي الله عليه وسلم من عز وشرف وصدق وأصاله وأمانه وشجاعه وقياده حكيمه رشيدة وكرم وعدل ومعجزات باهرات يقول :-

الحق منطقه والعدل سيرته فمن يجبه اليه ينج من تبب

ويقول :-

نبي له في قومه ارث عزه واعراق صدق هذبتها ارومها

ويقول :-

فان يك موسي كلم الله جهره علي جبل الطور المنيف المعظم

فقد كلم الله النبي محمدا علي الموضع الاعلي الرفيع المسوم

فهذا نبي الله احمد سبحت صغار الحصي في كفه بالترنم

ولم ينس ان يوجه شيئا من مدائحه الي بني هاشم ونقباء العقبه يقول مادحا بني هاشم:

قوم علا بنيانه من هاشم فرعا اشم وسؤددا ما ينقل

قوم بهم عصم الاله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل

ويقول في اهل العقبه :

أولاك نجوم لا يغبك منهم عليك بنجس في دجي الليل طالع

3- الهجاء :-

لكعب هجاء كثر موجه الي اعداء الدعوة وفيه يفند مزاعم المشركين ويرد علي اباطيل الحاقدين ويعيرهم بمخازيهم لقد هجأ مشركي مكه واستطاع ان يوجعهم ويزلهم بهجائه وهجا اليهود من بني النضير وبني قريظه كما هجا بعض القبائل المشركه المعانده من مثله بني لحيان هجا بعض رءوس الشرك وتصدي للشعراء الذين حاولوا ان يؤذوا الاسلام والمسلمين بأشعارهم من مثل عبد الله بن الزبعري ومن هجائه في اليهود قوله :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور

وذلك انهم كفروا برب عزيز أمره أمر كبير

فلما أشربوا غدرا وكفرا وحاد بهم عن الحق النفور

أري الله النبي برأي صدق وكان الله يحكم لا يجور

ويقول في هجاء مشركي مكه :-

نسيتم ضربنا بقليب بدر غداة أتاكم الموت العجيل

غداه ثوي أبو جهل صريعا عليه الطير حائمه تجول

وعتبه وابنه خرا جميعا وشيبه عضه السيف الصقيل

ويقول في هجاء ابن الزبعري :

خبيثا تطيف بك المنديات مقيما علي اللؤم حينا فحينا

تبجست تهجو رسول المليك قاتلك الله جلفا لعينا

تقول الخنا ثم ترمي به نقي الثياب تقبا أمينا

وله بالاضافه الي ذلك مناقضات هجائيه يرد فيها علي شعراء المشركين وقد طبعت هذه النقائض بطابع الهجاء والفخر والتحدي وكانت سلاحا حادا وسهاما مسمومه صوبها الي هؤلاء الشعراء وهي تبلغ احدي عشره نقيضه منها ارجوزتان وجملتها مائه وخمسون بيتا

وأهم نقائضه هي التي يرد فيها علي ضرار بن الخطاب وهيبره بن ابي وهب وعبدالله بن الزبعري وتتسم هذه النقائض عامه بالحديث عن الاسلام والرسول صلي الله عليه وسلم وبطولات المسلمين والارشادة بالانتصارات التي احرزها المسلمون كما تشير الي صبرهم في القتال وبسالتهم كما تتسم بتعدد الموضوعات ونقض الخصوم والرد عليهم ويلحظ عليها التأثر بالاسلام ومبادئه الكريمه وصدق

الشعور وبالاسلوب الرصين والبعد عن المقدمات ومن أطول هذه النقائض نقيضه التي يرد فيها علي هبيره بن ابي وهب (49بيتا) والتي بستهلها بقوله :-

ألا هل أتي غسان عنا ودونهم من الارض خرق سير متنعنع

ويقول فيها :

وفينا رسول الله نتبع أمره أذا قال فينا القول لا نتطلع

ضربناهم حتي تركنا سراتهم كأنهم بالقاع خشب مصرع

فخرت علي ابن الزيعري وقد سره لكم طلب من آخر الليل متبع

فسل عنا في عليا معد وغيرها من الناس من اخزي مقاما واشنع

4- الرثاء :

لكعب شعر كثير في الرثاء خاصه رثاء النبي صلي الله عليه وسلم والابطال المسلمين الذين وقعوا صرعي الاحداث واستشهدوا في الحروب والغزوات .

والحق ان كعبا قد ذرف دموعا سجالا سخينه علي النبي صلي الله عليه وسلم وعلي هؤلاء الابطال وقد كان في الرثاء ـ كثيرا ما يعدد المناقب ويذكر الشمائل ويجلي المصيبه والخطب الجلل يقول راثا النبي صلي الله عليه وسلم

يا عين فابكي بدمع ذري لخير البريه والمصطفي

وبكي الرسول وحق البكاء عليه لدي الحرب عند اللقا

علي خير من حملت ناقة واتقي البريه عند التقي

ويقول في مقطوعه اخري:

الا انع النبي الي العالمينا جميعا ولاسيما المسلمينا

الا انع النبي الي من هدي من الجن ليله أذ يسمعونا

ويقول في رثاء سيدنا حمزه :

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

علي اسد الاله غداة قالوا احمزه ذاكم الرجل القتيل

وله الي جانب ذلك رثاء حار في شهداء مؤته ورثاء دام حزين في سيدنا عثمان بن عفان .

ـ موضوعات أخرى:

ولكعب بالإضافة إلي ذلك أشعار أخرى فى موضوعات غير ذلك مثل الوصف و الحكمة و الوعظ والدعوة .

أبرز السمات الفنية لشعر كعب :-

اتسم شعر كعب عامة بأن القصيدة سواء أكانت ذات موضوع واحد أم متعددة الموضوعات قد خلت من المقدمات التقليدية المعروفة ومن ثم اتسمت القصيدة عنده بالوحدة العضوية وتلاحم الأجزاء والعاطفة الواحدة التى تربطها فجاءت ذات جو نفسى واحد .وأما المعانى فقد جاءت معانى إسلامية خالصة حيث إنه ثأثر بالإسلام إلى حدود بعيده جدا .

واتسم الخيال عنده بالحرارة والانسياب والتقط معظم الصور الأحداث والغزوات والحروب والبطولات

و أما الأسلوب فقد جاء متأثرا فيه بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مطبوعا مناسبا معبرا أصدق تعبير عن المعاني والموضوعات التى طرقها . و أما الموسيقا فكانت ملائمة للموضوعات أيضا فقد جاء كثير من القصائد مصبوبا فى بحور الطويل والكامل والبسيط والوافر وهي بحور لها تفعيلات تتسع للموضوعات الجادة التى عبر عنها .

ـــ عبدالله بن رواحة:

ـ الاسم والنسب والمولد والاسرة:

هو ابو محمد عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الخزرجي الانصاري سيد من سادات الانصار انحدرت اليه السيادة من اسرة ابيه التي كانت معروفة بذلك فلقد كانت تحكم بين الناس في الخصومات وانحدرت اليه السيادة ايضا من اسرة امه (كبشة بنت واقد الخزرجية) فلقد كان جده لامه (عمرو بن الاطنابة) فارسا معلاوفا وسيدا من سادات الخزرج واحد قوادها .

ولد عبد الله بن رواحه في يثرب لكن المصادر لم تسعفنا بتاريخ ميلاده ولم تعطنا صورة كاملة عن طفولته بيد انها تشير الي انه كان لعبد لله اخت تسمي (عمرة بنت رواحة) وهي ام الصحابي الجليل النعمان بن بشير ومن الاسرة نفسها اخوه (ابو الدرداء) عويمر بن عامر وهو صحابي جليل روي كثيرا من الاحاديث النبوية الشريفة وقد قال عنه النبي " نعم الفارس عويمر " ولكن ابا الدرداء كان اخا لعبدالله من امه ومن اخوة عبدالله من امه : قيس بن شماس من نجباء الصحابة وكان خطيب الانصار .

ـــ نشأته وحياته :

نشأ عبد الله بن رواحه في يثرب في ظل اسرة عرفت بالشرف والسيادة ولكننا لا نجد اخبارا كثيرة عن نشأته الاولي في الجاهلية ولا تستطيع تلك الاخبار ان ترسم لنا صورة واضحة لنشأتة المبكرة بيد ان كتب التاريخ والسيرة تروي لنا ان والده قد عني بتربيته منذالصغر وكان عبدالله يعرف الكتابة مما جعل النبي – فيما بعد- يختاره نقيبا علي قومه في بيعه العقبة الثانية .

كان عبدالله صاحب ثروة وجاه وكان يملك عددا من الغلمان والعبيد .

واذا كانت الاخبار التي تروي عن حياته في الجاهلية قليلة فانها تعطينا صورة واضحة له بعد اسلامه فلقد اسلم عبدالله بن رواحه في بيعة العقبة الثانية (سنة 13 من

البعثة) حيث كان ضمن الوفد الذي لقي النبي عند العقبة (73 رجلا وامرأتان) فدخوله في الاسلام كان مبكرا ولمكانته اختاره الرسول نقيبا ضمن الاثني عشر نقيبا الذين كانوا كفلاء علي قومهم .

ـ أخلاقه:

كان ابن رواحه رجلا صادق الايمان قوي العقيدة سباقا الي العبادة والطاعة وفعل الخيرات ومن اكبر زهاد المسلمين وعبادهم كان شديد التدين والورع والتقوي يقول ابوالدرداء : نكون مع رسول الله في السفر في اليوم الحار ما في القوم احد صائم الا رسول الله وعبدالله بن رواحه : ويقول عنه الرسول : رحم الله ابن رواحه كان اينما ادركته الصلاة اناخ " ويقول عنه صلي الله عليه وسلم ويتشدد في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم وكان يبكي من خشية الله دائم الذكر لربه كثير الصلاة الي درجة انه كان اذا دخل بيته صلي ركعتين واذا اراد ان يخرج صلي ركعتين .

لقد كان عبدالله بن رواحه مثالا للطاعة والتقوي بالاضافة الي شجاعته وفروسيته فرحم الله بن رواحه راهب الليل وفارس النهار انه نعم الرجل كما قال عنه رسول الله

ـ جهاده :

تعمق الايمان قلب عبدالله بن رواحه منذ ان دخل في الاسلام فكان له دور بارز في الاحداث الاسلامية فلقد كان مقاتلا فارسا مسلما مجاهدا شجاعا لا يتوانى عن اداء واجبه شهد بدرا واحد والخندق وخيبر وعمرة القضاء والمشاهد كلها مع رسول الله الا الفتح لانه قد استشهد في مؤته سنه 8 هـ ففي بدر كان احد الانصار الثلاثه الذين تقدموا للمبارزه ولما رفضت قريش تقدم علي وحمزة وعبيدالله بن الحارث وابلي عبدالله في المعركه بلاء حسنا ولما انتهت المعركه كان عبدالله بشيرا الي اهل العاليه من قبل رسول الله وفي احد كان له دور المجاهد الصابر والشاعر الحزين علي الشهداء وفي بدر الثانيه استخلفه الرسول علي المدينه فكان اميرا علي المدينة لمده سته عشر يوما وفي الخندق كان له دور في بث الحماس في نفوس الذين عملوا في

الخندق فقد كانوا يرتجزون شعره وفي هذه المعركه ابلي عبدالله بلاء حسنا واشترك عبدالله مقاتلا في غزوة بني المصطلق سنه 6هـ كما كان احد الثلاثة الذين ارسل بهم النبي يستكشف خبر اسير بني رزين اليهودي الذي اقترح طريق علي اليهود لقتل النبي فلما علم عبد الله بذلك رجع الي النبي يخبره بما اسير فامره النبي علي ثلاثين رجلا في سريه الي خيبر وقد استطاع عبدالله ان يقتل اسيرا ومن معه من اليهود وفي عمرة القضاء سنه 7 هـ كان عبد الله اخذا بخيطان ناقه النبي وهو يرتجز خلو بني الكفار عن سبيله خلو فكل الخير مع رسوله وذهب الي خيبر بعد عمره القضاء خارصا (يقدر ما علي الشجر من الثمار بالظن) وكان شديدا في خرسه فاراد اليهود ان يرشوه فرفض وقال اتطعموني السحت وقد جئتكم من عند احب الناس الي وانتم ابغض الي من القردة والخنازير وهكذا يستمر في جهاده حتي يستشهد في مؤته سنه 8 ه التي كان احد امراء الجي فيها .

ـ منزلته الشعرية :

كان عبدالله بن رواحه اجرأ واسرع شعرا في كثيرا من المواقف وقد عرف له النبي ذلك كما عرف له مكانته شاعرا ولذلك سأله مرة ما الشعر يا عبدالله فقال شئ يختلج في صدر الرجل فيخرجه علي لسانه فقال له النبي هل تستطيع ان تقول شئ فقال وقد نظر في وجهه النبي

اني قد تفرست فيك الخير اعرفه والله يعلم ان ما خانني البصر

انت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد ازري به القدر

فثبت الله ما اتاك من حسن تثبيت موسي ونصرا كالذي نصروا .

فدعا له النبي قائلا واياك ثبت الله واياك ثبت الله وكان رسول الله يستمع الي شعر عبدالله بن رواحه وهوينشد فيرتاح اليه ولذلك حينما دخل صلي الله عليه وسلم في عمرة القضاء ليطوف بالبيت كان عبدالله اخذ بخيطان ناقة النبي منشدا :

خلو بني الكفار عن سبيله خلو فكل الخير مع رسوله

فقال عمر رضي الله عنه أفي الحرم وبين يدي رسول الله تقول الشعر فقال الرسول خلى عنه يا عمر.

كان رسول الله كثيرا ما يردد شعره ويأنس بانشاده ويستعين به علي العمل كما في غزوة الخندق وقد وصفه النبي بانه لا يقول الرفث كما كان يأمره بالرد علي كفار قريش وذلك في مثل قوله امرت عبدالله بن رواحه فقال واحسن ولذلك كان احد الشعراء الثلاثة الذين تولوا الدفاع عن الاسلام في معركة الهجاء ضد شعراء قريش ولذا قال النبي انك لحسن الشعر وقد وضعوا ابن سلام ثالث ثلاثة من شعراء يثرب وقال عنه عظيم القدر في قومه سيد في الجاهيلة ليس في طبقته التي ذكرنا اسود منه وكان في الاسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله فهو من طبقة حسان بن ثابت ومعني ذلك أنه من فحول شعراء المدينة ولمكانته الشعرية روي له ابوزيد القرشي في جمهرته قصيدة مطلعها :

تذكر بعدما شطت نجودا وكانت تيمت قلبي وليدا

وقد جعلها من المذهبات بل ثانية المذهبات وقال عنه الامدي هو شاعر محسن وفارس وقال عنه صاحب الاستيعاب احد الشعراء المحسنين وقيل عنه انه احد الشعراء المفلقين .

ـ شعره:

علي الرغم من قلة شعر ابن رواحه فانه متعدد الاغراض والموضوعات واهمها ما يلي :

1- الشعر الحماسي : ونقصدبه الشعر الذي نظمه في تشجيع المسلمين في اوقات الشدة وساعات الحرب ولقد كان لهذا الشعر اثر كبير في نفوس المسلمين يبعث فيهم الحماس والحمية والهمة والنشاط ويبث فيهم الصبر والايمان ويلهب العزائم والهمم ولقد كان اغلب هذا الشعر رجزا مرتجلا فيه الصدق والحرارة وكان يلقي عند

المسلمين استجابة كبيرة ومن ذلك ما كانوا ينشدون من شعره وهم منهمكون في بنـاء مسجد قباء .

افلح من يعالج المساجدا

ويقرأ القرآن قائما وقاعدا

ولايبيت الليل عنه راقدا

وكان الرسول يردد وراء الشاعر قافية كل بيت وكان لعبدالله بن رواحة شعر حماسي في يوم الخندق يثير في حمية المسلمين وكان الصحابة وهم يعملون يرتجزونـه يقـول فيه :

تالله لو الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

الكافرون قد بغوا علينا

اذ ارادوا فتنه ابينا

وفي مؤتة اخذ ينشد الناس وقد تحيروا في امرهم ودخلهم روع وخـوف وفـزع ومـن ذلك قوله :

جلبنا الخيل من اجأ وفرع تغر من الحشيش لها العكوم

اقامت ليلتين علي معان فأعقب بعد فترتها جموم

فعبأنا اعنتها فجاءت عوابس والغبار لها بريم

واخذ ينشد بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب قائلا :

اقسمت يا نفس لتنزلنه

طائعة اولا لتكرهنه

مالي اراك تكرهين الجنة

قد طالما قد كنت مطمئنة

2)ذكر الموت :

ورد في شعر ابن رواحة ذكر الموت وخاصة منذ بدأ يتجهز للخروج الي مؤته وكأنما كان لدية احساس بذلك وكان فرحا بهذه النهاية التي تشوق اليها وامل فيها وانتظرها طويلا فلقد كان يسأل الله الشهادة والمغفرة وذلك كما يظهر في قوله :

لكنني اسال الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهرة بحرية تنفذ الاحشاء والكبدا

حتي يقال اذا مروا علي جدثي ارشده الله من غاز وقد رشدا

وقد امتزج عنده الشوق الي الشهادة بزهد في الحياة وبهرجها ولذلك ارخص كل شئ ولم يعد يبالي بشئ في الحياة يقول معبرا عن ذلك :

هنالك لا ابالي طلع بعل ولا نخل اسافلها رواء

وحينما اقترب تحقيق الامل فاستشهد صاحباه (زيد بن حارثة وجعفر ابن ابي طالب) اندفع يحمل الراية ويقود الجيش قائلا :

اقسمت يا نفس لتنزلنه طائعة اولا لتكرهنه .

وحينما اصيبت اصبعة ونفر منها الدم لم يعبأ بذلك واستمر في القتال مرتجزا قوله :

هل انت الا اصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

يانفس الاتقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد اعطيت ان تفعلي فعلها هديت

3) الرثاء :

لعبدالله بن رواحه شعر في رثاء بعض الشهداء الذين وقعوا صرعي الاحداث اشهره قصيدته التي نظمها في رثاء حمزة بن عبدالمطلب التي يقول فيها :

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

علي اسد الاله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيل

وهو في هذه القصيدة يمزج بين رثاء حمزة وبين الرد علي قري التي فرحت بما حققت من نصر يوم احد .

ـ الدفاع عن الاسلام والنبي :

ومن اهم اغراض شعر عبدالله بن رواحة ذكره الاسلام والدفاع عنه وعن النبي صلي الله عليه وسلم وقد ظهرت في هذا الغرض المعاني الدينية والتأثر بأفكار الاسلام وعباراته والفاظه ومن ذلك قوله :

شهدت بأن وعد الله حق وان النار مثوي الكافرينا

وان العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ملائكة الاله المقربينا

وفي هذا النوع من الشعر نراه يذكر الرسول الكريم ويذكر فضله ويتحدث عن فضل الدين الذي اخرج الله به عباده من الضلال الي الحق ومن العمي الي النور والخير الي الرشاد اذ يقول :

وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الصبح ساطع

ارانا الهدي بعد العمي فقلوبنا به موقنات ان قال واقع

واعلم علما ليس بالظن انني الي الله محشور هناك وراجع

وفي هذا النوع ايضا يمدح النبي وآل هاشم ومن ذلك قوله :

انت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد ازري به القدر

ويقول :

يا آل هاشم ان الله فضلكم علي البرية فضلا ماله غير .

ـ السمات الفنية لشعر عبدالله بن رواحه:

يتسم اغلب شعر ابن رواحه بخلوة من الصنعة والتكلف فهو شعر سهل بسيط مطبوع يتدفق في سهولة وانسياب حتي لكأنه في بعض الاحيان كلام عادي لخفته وقرب مأخذه وليس فيه مراجعة او تنقيح فهو وليد اللحظة الخاطفة واللمحة السريعة والموقف المفروض ولذا قيل عن ابن روحة انه " اجرأ وأسرع شعرا فلقد كان يقول الشعر الذي تقتضيه الساعة واللحظة والموقف واتسم ايضا ببساطة التراكيب ووضوح المعاني وكثير منه كان مقطعات وهي مقطوعات اقرب ما تكون الي الروح الشعبية والي لغة الخطاب العادي اليومي وتتجلي فيه الروح الاسلامية معني وتعبيرا وصيغا هذا هو ابن رواحه الصحابي الجليل الفارس المغوار والشاعر المسلم المجاهد الذي حمل سيفه وقلمه في سبيل الله عزوجل .

هذا هو ابن رواحة " راهب الليل وفارس النهار " الذي قال عنه النبي نعم الرجل ابن رواحه والذي كان يري الرسول ان من اقرب الشعر الي قلبه شعر عبدالله بن رواحه ولذلك كان كثيرا ما يستزيده وكان المسلمون يرددون أراجيزه الجميلة .

رحم الله ابن رواحة رحمة واسعة علي قدر ما اعطي للاسلام وبذل في سبيله .

ــ شعر الشيعة في العصر الأموي:

مفهوم التشيع : التشيع في اللغة يعني الموالاة والمتابعة والشيعة : الأتباع والموالون والمؤدون ، قال تعالي :" وإن من شيعته لإبراهيم ، أي من أتباعه وأنصاره .

وفي الاصطلاح يعني : مناصرة سيدنا علي بن أبي طالب وموالاته واعتباره أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة ؛ وانه الخليفة الذي كان يجب أن يتولي أمر المسلمين بعد رسول الله صلى ɛالله عليه وسلم، ولكن حقه هضم واغتصب ، وأن أولاده من بعده هم الورثة الشرعيون .

ــ نشأته:

تضاربت الآراء نشأة التشيع فمن رأي يذهب إلي أنه نشأ في عصر النبي ɛ ، ورأي أخر يقول بنشأته إثر وفاة الرسول ɛ وثالث يدعي بأنه نشأ إبان الفتنة الكبرى ورابع يحتج بأنه نشأ في حرب صفين وآخر يقول بنشأته بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان وقد صار لكل رأي أنصار ومؤيدون ذهبوا يثبتون وجهة نظرهم .

ــ فرق الشيعة:

توزع الشيعة فرقا وأحزابا وقاموا بثورات كثيرة منها ثورة الحسين أبن علي سنة 65 هـ وحركة المختار الثقفي سنة 66 ـ 67 هـ ، وثورات الزيدية وغيرها .

وأما أهم فرقتهم فهي :

1ـ غالية الشيعة: وهم الذين تجاوزوا في حق علي والأئمة حتى أخرجوهم عن الحدود الخلقية ، وحكموا فيهم بأحكام إلهية ونبوية

2- الكيسانية: هي فرقة تكونت حول المختار الثقفي الذي تعد حركته طليعة الحركات الدينية التي تتخذ من الدين وسيلة لتحقيق أطماع سياسية ، ويزعم بعض فرق الكيسانية أن علي بن أبي طالب قد نص علي إمامة أبنه محمد بن الحنفية بعده ويري آخرون أن محمد أبن الحنفية أن يتولي الإمامة بعد أبيه وأخويه (الحسن والحسين) .

وقد كان لهذه الفرقة أثر بالغ في التاريخ فلقد استغلها العباسيون في الدعوة لأنفسهم .

3ــ الزيدية : هي التي تنسب إلي زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وهذه الفرقة تدعي بأن الإمامة تنتقل من علي إلي الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم زيد بن علي زين العابدين .

وهم يقصرون الإمامة علي أولاد فاطمة رضي الله عنها ، ويرون أن الإمام يجب أن تجتمع فيه عدة خصال أهمها : العلم والزهد والشجاعة والخروج وأن يكون من أولاد فاطمة حسنيا كان أم حسينيا ويغلب علي هذه الفرقة الاعتدال الذي أخذه زيد عن واصل بن عطاء .

4- الأمامية : وهي التي تجري الخلافة من علي ثم الحسن إلي الحسين فعلي زيد العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق وقد " سموا بذلك نسبة إلي الإمام (الخليفة) وأكثروا من الاهتمام به وركزوا كثيرا من تعاليمهم حوله وتري أن النبي قد نص وصرح بإمامه علي بعده وهي تنقسم إلي :

أــ أمامية اثني عشرية : وهم الذين قطعوا بموت موسي الكاظم بن جعفر الصادق،وساقوا الإمامة من بعده في أولاده وعدد الأئمة عندهم اثنا عشر إماماهم : علي بن أبي طالب ، الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسي الكاظم ، علي الرضا ، محمد الجواد، علي الهادي ، الحسن العسكري ، محمد المهدي المنتظر .

ب ـ الإسماعيلية : وهي الفرقة الرئيسة الثانية المتفرعة من الأمامية ، وهي التي زعمت أن الإمام بعد جعفر الصادق أبنه إسماعيل وأنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه وتري أن والده أخفاه خوفا عليه من أعدائه وكان من نسل إسماعيل هذا عبيد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية .

أهم عقائد الشيعة :

1 ـ الإمامة ركن الدين وقاعدة الإسلام .

2 ـ الإمامة حق لعلي وأنبائه من بعده .

3 ـ الإمامة واجبة علي المسلمين ولا غني عنها .

4 ـ الإمام معصوم من الخطأ (إلا الزيدية) .

5 ـ أن النبي صرح بإمامة علي وأن نصوصا دينية قد قضت بذلك

6 ـ أكثر الشيعة يؤمنون بالمهدية والرجعة .

7 ـ وجوب حب آل البيت .

شعر الشيعة : يذهب شعر الشيعة في أغراض متعددة أهمها ما يأتي :

1) حب آل البيت ومديحهم :

تمكن حب آل البيت من نفوس الشيعة تمكنا وتغلغل في قلوبهم إلي درجة أنهم رأوه شيئا واجبا وعقيدة يجب الإيمان بها بل هو ركن ركين من الإسلام لا يتم إلا به ، ودليل علي حب الله عز وجل وحب رسوله ε وهذا ما يظهر في قول أبي الأسود الدؤلي :

أحب محمدا حبا شديدا وعباسا وحمزة والوصيا

بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم أليا

أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بعثت علي هويـا

وقد صار هذا الحب زادا يتزودون بـه ، وشـيئا يتقربـون بـه إلـي الله زلفـى وبـه يطلبون النجاة من عذاب الآخرة كـما يقول السيد الحميري :

ثم الولاء الذي أرجو الحياة به :

من كبة النار للهادي أبي حسن

وقد دفعهم هذا الحب إلي مدح آل البيت مدحا يتجاوز كل مدح ، يقول الفرزدق :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفـه والحـل والحـرم

هذا أبن خير عباد الله كلهـم هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلـها إلي مكـارم هـذا ينتـهي الكـرم

يغضي حياء ويغضي من مهابته فما يكلـم إلا حيـن يبتسـم

من معشر حبهم دين وبغضه كفر وقربهـم منجـي ومعتصم

وهذا هو الكميت بن زيد ألأسدي الذي أخلص للشيعة وأحبهم حبا جما إلي درجة أنه لا يري شيعة في الوجود إلا آل البيت ولا مذهبا في الـدنيا إلا مـذهبهم فهـو المـذهب الحق ، يقول معبرا عن هذا الحب :

طربت وما شوقا إلي البيض أطرب

ولا لعبـا منـي وذو الشيب يلعب

إلي النفر البيض الذين بحبهـم

إلـي الله فيمـا نالنـي أتقـرب

بـأي كتـاب أم بأيـة سنـة

تـري حبهم عـارا علي وتحسب

فمـالـي إلا آل أحـمد شيعـة

ومالي إلا مشعب الحـق مشعـب

2 ـ رثاء آل البيت وشيعتهم :

وفي الجانب المقابل وقف شعراء الشيعة يرثون آل البيت معلنين حزبهم وتفجعهم . والحق أن آل البيت ومن شايعهم قد نكبـوا نكبـات عديدة واستشـهد منهم ومن أتبـاعهم الكـثير في سبيل عقيدتهم وقد اتخذ شعراء الشيعة من الكـوارث الـتي حلـت بـآل البيـت معينـا لا ينضـب فـي الرثـاء ولعل أكثر تلـك الكـوارث إيلامـا هـي استشهاد الحسين في كـربلاء لقد ذرف الشعراء في هذه الكارثـة العبـرات وسـفحوا الدموع غزيرات ونفسوا عن عاطفة مكلومـة وقلـب مفجـوع فـي شـعر حـزين بـاك يقول عبيد الله بن الحر في قتلي كربلاء :

وقفت علي أجداثهم ومجالهم

فكاد الحشا ينفض والعين ساجمه

لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى

سراعا إلي الهيجا حماة حضارمة

فـإن يقتلوا فكل نفس تقية

علي الأرض قد أضحت لذلك واجمة

سقي الله أرواح الذين تآزروا

علي نصره سقيا من الغيث ساجمه

ويعد بعض الباحثين / عبيد الله بن الحر " أول من وضع تقاليد البكائين للحسين ويقول أبو الأسود الدؤلي :

قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينا

إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت النور فوق ألناظرينا

لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسبا ودينا

ويري سليمان بن قتة أن البكاء وحده لا يكفي فهو ليس حزينا بمفرده بل إن السماء لتبكي علي آل البيت والشمس صارت مريضة والنجوم ناحت علي الحسين وصلت وكذا الدنيا كلها حزينة باكية يقول معبرا عن ذلك :

ألم تري أن الشمس أضحت مريضة

لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد أعولت تبكي السماء لفقده

وأنجمها ناحت عليه وصلت

ويأخذ شعراء الشيعة في أثناء رثائهم آل البيت في تقريع الأمويين علي ما اجتر فوا في حق آل البيت وما اقترفوا من ذنوب ، يقول أبو الأسود الدؤلي مخاطبا إياهم :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي

منهم أساري وقتلي ضرجوا بدمي

هل كان جزائي إذ نصحت لكم

أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وهكذا ظل الشيعة يبكون ويتألمون ويذرفون الدموع السخينة والعبرات الغزيرة الرقيقة حتى لقد ضرب المثل برقة دموع الشيعة فقيل :

أرق من دمعة شيعية تبكي علي أبن أبي طالب

3 ـ الاحتجاج والحملة علي الخصوم :

يري الشيعة أنهم أفضل من غيرهم وأن آل البيت أحق الناس بالخلافة وهم عصمة الدين وأئمة المسلمين ، وقد فرض لهم القرآن ذلك ، كما أن النبي ε قد نص علي ذلك وأشار إليه في أكثر من حديث .

ومن الآيات التي يحتجون بها في أحقية آل البيت في الخلافة قول الله عز وجل " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

ومن الأحاديث النبوية حديث غدير خم الذي يرون أنه نص أكيد صريح بإمامة علي بن أبي طالب الذي يقول فيه النبي صلي الله عليه وسلم بعد أن أخذ بيد علي " اللهم وآل من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله وعن هذا الحديث يعبر السيد الحميري قائلا :

إذا أنا لم أحفظ وصاه محمد

ولا عهده يوم الغدير المؤكدا

فإني كمن يشري الضلالة بالهدي

تنصر من بعد التقي وتهودا

ومن هذه الأحاديث قوله ε لعلي بن أبي طالب " أنت مني بمنزلة هارون من موسي إلا أنه لانبي بعدي

ومن ثم أخذوا يدعون الناس إلي الانضواء تحت راية آل البيت واعتبار بني أمية مغتصبين الخلافة ، ولذلك نري الكميت يقول مخاطبا الأمويين محاولا مزاعمهم في الخلافة :

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم

فلم أر غصبا مثله يتغصب

يرون لهم فضلا علي الناس واجبا

سفاها وحق الهاشميين أوجب

فإن هي لم تصلح لحي سواهم

فإن ذوي ألقربي أحق وأقرب

وهكذا أخذ شعراء الشيعة يحملون علي خصومهم ، ويجادلونهم ويفندون مزاعمهم ويتهمونهم بالظلم خاصة الأمويين ، وفي الجانب المقابل يصفون آل البيت بالعدل وحسن السيرة والسياسة ، يقول الكميت :

راجحي الوزن كاملي العدل في السي

ره طبين بالأمور الجسام

ساسة لا كمن يري رعية النا

س سواء ورعية الأغنام

فهم الأرأفون بالناس في الرأ

فه والأحلمون في الأحلام

4 ـ رجعة الإمام :

أمل الشيعة في عودة الإمام نتيجة الظلم الذي لاقوه والاضطهاد الذي حل بهم ، وقد كانت عقيدة الرجعة أملا يريح نفوسهم وعزاء يسليهم عن الحرمان الذي عاشوه ، وتخفيفا عن العسف السياسي الذي عانوه .

والرجعة عندهم تعني عودة الإمام إلي الدنيا ليملأها عدلا بعدما ملئت ظلما وجورا . فهذا كثير عزة (وتنسب الأبيات إلي السيد الحميري) يري أن أبن الحنفية لم يمت وإنما تغيب في جبل رضوى بالحجاز وأنه سيعود إلي الدنيا يقول معبرا عن هذه العقيدة :

ألا أن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يري فيهم زمانا برضوي عنده عسل دماء

وهذا هو كثير عزة الذي يدين بهذه العقيدة نراه يقول أيضا :

ألا قل للوصي فدتك نفسي أطلت بذلك الجبل المقاما

وما ذاق أبن خوله طعم موتولا وارت له أرض عظاما

ألا حي المقيم بشعب رضوي وأهد له بمنزله السلاما

تمام مودة المهدي حتى تروا راياتنا تتري نظاما

ـ سمات الشعر الشيعي :

يتسم شعر الشيعة بالغزارة والكثرة ومواكبة الأحداث الشيعية ومن ثم اعتباره وثيقة تاريخية للشيعة ، وقد دخله بعض الانتحال ، ويتسم أيضا بأنه سياسي عبر

عن رأي الشيعة في الخلافة ، وطرق شعراؤه أغراضا عديدة ، واصطبغ بالإضافة إلي ذلك بالصبغة الدينية ، كما ظيتميز بحرارة العاطفة ـ وفيه مجادله ومناظرة كما أنه طبع بالطابع الشعبي . وأما الأساليب فقد تنوعت بين الرقة والجزالة والعذوبة والفخامة وهو هادئ رزين في المناظرة ، ثائر عنيف في الهجوم علي الأعداء ، رقيق حزين في الرثاء . والمحور الذي يرتكز عليه هذا الشعر هو الجهاد من أجل الخلافة

ــ شعر الخوارج:

ــ التسمية والنشأة:

سمى الخوارج بذلك لخروجهم على على بن ابى طالب حين قبل التحكيم فى صفين أو سموا بذلك من الخوارج اعتمادا على قول الله تعالى " ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله " ولهم اسماء أخرى مثل المحكمة لقولهم " لا حكم الا لله " ومثل الحرورية نسبة الى حوراء وهى قرية قرب الرقة على الفرات وهى قرية انحازوا اليها فى اول الأمر ومثل الشراة أى الذين شروا آخرتهم بدنياهم

ويبدأ تاريخهم السياسى عقب صفين حينما انحازوا الى حروراء وأبوا دخول الكوفة مع على واجتمعوا بالنهروان واستخلفوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى وعبد الله بن الكواء وأخذوا يصدرون العنف والارهاب ويفسدون فى الارض فاضطر على الى قتالهم وكانت نهاية سيدنا على على يد واحد منهم هو عبد الرحمن بن ملجم والحق أن ثوراتهم لم تهدأ طوال العصر الأموى ضد الأمويين وغيرهم

ــ فرق الخوارج :

ينقسم الخوارج الى فرق كثيرة تبلغ عند الرازى احدى وعشرين فرقة وعند البغدادى اثنتين وعشرين ولكن ابرزها وأهمها

الأزارقة : وهم أتباع نافع بن الأزرق وهذه الفرقة أعظم فرق الخوارج وأشدها خطرا

النجداة العاذرية : أتباع نجدة بن عامر

الإباضية : أتباع عبد الله بن اباض

الصفرية : أتباع زياد بن الأصفر

العجاردة : أتباع عبد الكريم بن عجرد

صفات الخوارج ومميزاتهم :

يتميز الخوارج بصفات وملامح خاصة قد لا توجد فى الفرق الأخرى ولعل أهم هذه المميزات ما يلى :

البساطة والسطحية : وعدم التعمق فى فهم الأمور وعدم تقدير النتائج تقديرا سليما والدليل على ذلك أنهم حاربوا مع ابن الزبير حتى انجلى الأمويون عن مكه ثم طالبوا ابن الزبير ابداء رأيه فى عثمان وعلى

التشدد فى العباده : ومن ذلك أن ابن عباس عندما ذهب إليهم رسولا من قبل على رأى منهم جباها قرحا وأيديا كثفات الابل من طول السجود

الوفاء : ومن ذلك ان بن زياد كان قد سجن مرداس بن أديه ولما رأى السجان صلاحه وتقواه كان يصرفه الى داره على ان يعود فى مطلع الفجر فكان يفعل ولا يتخلف

من ملامح الخوارج : الفوضى وعدم الخضوع للنظام ولولا ذلك لكانت لهم قوتهم القاهره

كانوا اعداء للاسلام والمسلمين بطريق غير مباشر فلقد ابتدعوا فى الاسلام اشياء ليست منه ونكلوا بالمسلمين وأزهقوا أرواح الآلاف

وتتلخص أفكارهم السياسية فى ان الإمامه غير ضرورية وعلى الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ويجوز لهم أن يناصبوا امامهم ويجب أن يختاره المسلمون اختيارا حرا ولا يشترط ان يكون قرشيا وتجب طاعته ما اطاع الله والا فالثورة واجبة عليه

والحق ان ظهور الخوارج قد اقترن من ذ البداية برفضهم كل الأوضاع السياسية السائدة آنذاك فالتقوا منذ بداية نشأتهم حول فكرة سياسية جعلتهم أقرب الطوائف الاسلامية فى العصر الأموى الى مفهم الحزب السياسى الذى يحارب خصومه فى

سبيل هدف واضح وفهم خاص للحكم ورأى الدين فيه فهم لم يعتمدوا فى دعوتهم على انتماء الدين كالهاشميين ولا على انتماء قبلى كالأمويين ولا نزعه اقليمية كالزبيريين وأنما جمعهم رأى واحد هو أن الخلافة شورى بين المسلمين

وأما أهم عقائدهم الدينية فانهم يختلفون فيها فمنهم من يتشدد ومنهم من يتخفف بعض الشئ ويرى المتشددون أن من سواهم غير مؤمن ولذلك فانهم يستبيحون قتلهم وقتل أطفالهم ويرون ان المخالفين مصيرهم النار أما المتخففون فانهم يرون أن دماء مخالفيهم حرام وأن دارهم دار توحيد الا معسكر السلطان

ـ موضوعات شعر الخوارج :

من أبرز موضوعات شعر الخوارج ما يأتى :

1 – الحث على الثورة والجهاد :

صور شعر الخوارج كتيرا من حروبهم وقتالهم ومجد أبطالهم ودعا الى الثورة والجهاد ضد اعدائهم فلقد ظلوا يحاربون ويقاتلون ويثورون ويجابهون الأمويين وغير الأمويين ؛ ولذا يمكن القول ان شعر الخوارج ما هو الا شعر ثورة وجهاد ودعوة الى الحماس والإستبسال فى سبيل المبدأ الذى آمنوا به وفى سبيل عقيدتهم التى تعمقوها ونحن حينما نقرأ شعرهم نحس بأن الاسلام لا يتجاوز حدود معسكراتهم .

لقد استنهض شعراء الخوارج جيش وبثوا فيه الحمية والثورة وحب الموت واستعذابه

وهذ معاذ بن جوين يقول :

فشدوا على القوم العداة فانها اقامتكم للذبح رأياً مضللاً

ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى اذا ذكرت كانت ابر واعدلا

لقد ظل الخوارج ثائرين وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائما للحرب والقتال ومن ثم كان الاستشهاد عندهم غاية ما يتمنونه والموت أعذب ما يرونه ولكى ينال الخارجى ذلك فهو حريص على الجهاد متأهب له دائما ، بل متعجلا اليه غير حريص على الدنيا وما فيها ولذلك يقول قطرى بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

فإنك لوسألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

ويقول :

لا يركنن احداً الى الإحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

أدعو الكماة الى النزال ولا أرى نحر الكريم على القنا بحرام

لقد امتلأ شعر الخوارج بالدعة الى الثورة و الجهاد و طلب الموت واستعذابه وكره الحياة حتى انتهى بهم الأمر " حال الدنيا و مصائر الانسان فيخلص الى الإيمان الى الحياة عرض زائل و أن الانسان فيها ظل عابر

مما يدلنا على ذلك قول عمران بن حطان

لقد زاد الحياة إلى بغضا وحبا للخروج أبى البلاد

أحاذر أن أموت على فراش و أرجو الموت تحت ذرا العوالى

و من يكن همه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قال

وقوله:

حتى متى تسقى النفوس بكاسها ريب المنون و أنت لاهى ترتع

أفقد رضيت بأن تعلل بالمنا لاو إلى المنية كل يوم تدفع

أحلام نور أو كظل زائل إن اللبيب لمثلها لا يخدع

فتزود ليوم فقرك دائبا و إجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

2- الشجاعة و التقوى :

وهذا غرض من أغراض شعرهم فلقد كثر حديث شعرائهم عن هذين الجانبين الشجاعة والتقوى - فاسلم على كل من يتصف بهاتين الخصلتين وذلك كما نقرا فى قول الطرماح بن حكيم:

فوارس من شيبان ألف بينهم هدى الله ، نزالون عند التزاحف

و كما نقرأ فى قوله :

لله در الشراة أنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

يرجعون الحنين آونة و إن علا ساعة بهم شهقوا

خوفا تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق

و الخوارج - كما يصفهم شعراؤهم - يقومون الليل و يكثرون من الحنين إلى الجنة ويكثرون من الأنين خوفا من النار حتى لتكاد قلوبهم تنفطر و هم فى النهار أسد مغاوير فى القتال فى غاية من البسالة و الشجاعة يندفعون إلى أعدائهم غير هيابين ولا وجلين يقول سبرة بن الجعد معبرا عن ذلك :

إلى عصبة أما النهار فإنهم هم الأسد أسد الغيل عند التهايج

و أما إذا ما الليل جن فإنهم قيام بأنواح النساء النواشج

ويقول عمرو بن الحصين :

متأهون كأن جمر غضا للخوف بين ضلوعهم يسرى

وهم مساعر فى الوغى رجع و خيار من يمشى على العفر

و لعل فى أبيات قطرى التى أوردناها عند الحديث عن الحث على الثورة ما يوضح مقدار شجاعة هؤلاء الخوارج و زهدهم فى الدنيا و تقواهم

3 - الهجاء :

استخدم شعراء الخوارج الهجاء سلاحا حادا ضد أعدائهم ولكن هجاءهم لم يكن الهجاء محبوب عند شعراء العربية هذا الهجاء الذى يرمى المهجو بالنقائص الخلقية فقط بل تحول الى اتهام خطير وهو تكفير أعداءهم ورميهم بالالحاد والفجور والضلال فلقد رأى الخوارج جواز استباحة دماء مخالفيهم كما رأوا أنفسهم صالحين متقين يستحقون الجنة بينما مخالفوهم يستحقون العذاب والسعير وبئس المصير يقول قطرى بن الفجاءة فى يوم دولاب بعد أن تحدث فى بداية القصيدة عن زوجته أم حكيم :

لو شهدتنا يوم ذاك وخلينا تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا الاله نفوسهم جنات عدن عنده ونعيم

وهو يقصد بالكفار مخالفيهم فى الفعقيدة والمبدأ وكلمة حريم يعنى بها كل محرم ومن ذلك أيضا قول أم عمران بن الحارث وهى ترثى ابنها :

الله أيد عمرانا وطهره وكان عمران يدعو لله فى السحر

يدعوه سرا وعلانا ليرزقه شهادة بيد ملحادة غدر

وقد تحول الهجاء عند شعراء الخوارج لمخالفيهم فى العقيدة الى هجاء حاد وصل الى حد الاتهام بالكفر والمروق على الاسلام .

ـــ سمات شعرهم :

يتميز شعر الخوارج بأنه شعر سياسى مملوء بالجدال والاحتجاج والدفاع عن مذهبهم وعقيدتهم وهو تصوير صادق لشجاعتهم وبطولتهم وتقواهم وزهدهم وتعبير عن رأيهم فى مخالفيهم .

كما يتسم بجزالة الأسلوب وقوته بالاضافه الى انه شعر ملتهب حار فيه حرارة الايمان وقوة العقيدة وصدق العاطفة

ويلاحظ على شعرهم خلوه من العصبية القبيلية والشعوبية والبعد عن الارتزاق كما يتسم بوحدة القصيدة والتشابه فى الموضوعات والصور ويغلب عليه التأثر بالقرآن الكريم والبعد عن الصنعة اللفظية كما يغلب عليه كثرة المقطعات والحق أن شعر الخوارج يعد سجلا حقيقيا لمبادئهم وعقيدتهم والأساس الذى دار حوله هو الجهاد من أجل المبدأ والعقيدة وإن تعددت بعض موضوعاته ولا يمكن أن تغفل ظاهرة الالتزام فى هذا الشعر فلقد عاش كل شاعر من شعراء الخوارج ملتزما بالخط السياسى الذى حدده حزبه لم يخرج عنه ولم ينحرف .

لقد كان شعر الخوارج أصدق تعبير أدبى عن الإيمان بمذهب سياسى قائم على أسس دينية انه صورة رائعة للشعر الاسلامى القوى الجديد فى عصر بنى أمية .

ــ النقائض في العصر الأموي:

ــ التعريف :

النقائض جمع نقيضة ، والنقيضة لغة مشتقة من نقض إذا هدم ويقول صاحب تاريخ النقائض في الشعر العربي إن هذا المعني اللغوي له طوران أحدهما حسي يتمثل في نقض البناء أو الحبي ..... والثاني معنوي يبدو في نقض العهود والمواثيق وفي تقض القول والإتيان بما يغايره .

وأما في الاصطلاح فإن النقيضة هي قصيدة يرد بها شاعر علي شاعر ابتدره بالهجاء والفخر ينقض معانيه معني ويفخر عليه ويصمه بما يشينه ويشين قومه مستخدما الوزن والقافية للذين استخدامها الشاعر الأول . ومعني ذلك أنه " لابد من توافر ثلاث وحدات في القصيدتين حتى يقال إنهما نقيضتان : وحدة الموضوع ، ووحده الوزن ، ووحدة القافية وإن اختلفت حركة حرف الروي أحيانا .

ومن ذلك علي سبيل المثال قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتا دعائمه أعزو أطول

فيرد الذي سمك السماء قائلا :

إن الذي سمك السماء بني لنا عزا علاك فماله من منقل

فالنقيضتان من بحر الكامل وقافيتها لامية ولكن حرف الراء في الأولي مضموم وفي الثانية مكسور ومثال ذلك أيضا قول الراعي النميري .

رأيت الجحش جحش بني كليب

تيمم حوض دجلة ثم هابا

الذي يرد عليه جرير قائلا :

أقلي اللوم عاذل والعتابا

وقولي إن أصبت لقد أصابا

والحق أن النقائض الأموية ما هي إلا مباريات شعبية ومهاترات شعرية في التفاخر والتهاجي وقعت بين ثلاثة من فحول الشعر في العصر الأموي هم جرير والفرزدق والأخطل ومن انضم إلي تلك الحلبة مثل الراعي النميري والبعيث وغيرهما .

وقد شمر كل عن ساعده وراش سهامه لصاحبه ليقذعه بمر الهجاء وليقلل من شأن خصمه وشأن قبيلة الخصم وفي الوقت نفسه يعلي من قدر نفسه وقدر قبيلته وقد استمرت تلك المهاترات ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

ولعل أهم أركان النقائض التي ترتكز عليها هي :

1 ـ المعاصرة أو التزامن : بمعني أن يكون الشاعران المتناقضان قد عاشا وتزامنا في عصر واحد ، وحقا فجرير والفرزدق والأخطل قد عاشوا في عصر واحد والتقوا في سوقي المربد والكناسة في العراق وتهاجوا وتفاخروا في آن واحد .

2 ـ وحدة الموضوع الذي تصاغ منه النقائض سواء أكان فخرا أم هجاء أم سياسة أم غير ذلك وإن كان الفخر والهجاء هما المحور الذي دارت عليه النقائض .

3 ـ اتحاد النقيضتين في البحر والقافية وإن اختلفت حركة حرف الروي كما أشرنا إلي ذلك من قبل

وبهذه الأركان أو الأسس تختلف النقائض عن فن المعارضات الشعرية في بعض الوجوه وتتفق معها في بعض الوجوه .

وقد عرف البعض المعارضات بقوله : المعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة علي نمط قصيدة لشاعر آخر يتفق معه في بحرها ورويها وموضوعها سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين ويجري ذلك بدافع المناقشة أو المباراة أو الرغبة في إظهار البراعة والتفوق

ولعل أهم أوجه الاتفاق بين المعارضات والنقائض هو الاتحاد في الوزن والقافية وقد رأينا شيئا من تلك النقائض وأما في المعارضات فإننا يمكن أن نسوق مثالا دالا علي هذا الأمر وهو قول أبي الحسن الحصري القيرواني (لو في سنة 488 هـ) وهو أبن خالة أبي اسحق الحصري صاحب (زهر الآداب) إذ يقول في قصيدته المشهورة " ياليل الصب "

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده ؟

رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده

وقد عارضها أكثر من ثلاثين شاعرا أشهرهم أحمد شوقي الذي يقول :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورجم عوده

حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهدة

فالقصيدتان من بحر المتدارك والقافية واحدة .

وإن شئنا فالننظر في كتاب تاريخ المعارضات في الشعر العربي لنري ذلك الكم الوفير من المعارضات الشعرية .

وأما أوجه الاختلاف بينهما ـ النقائض والمعارضات ـ فمتعدد منها :

1 ـ السبب الذي أنشئت من أجله النقائض هو العداوة وإثارة العصبية والنيل من الشاعر بالفخر والهجاء والتفنيد والتكذيب وأما سبب المعارضات فهو الإعجاب : إعجاب شاعر متأخر بقصيدة لشاعر متقدم .

وربما تكون " الرغبة الجامعة في إظهار البراعة والتفوق أوقد يكون السبب هو " تأثر المعارض بغيره إلي حد الرغبة في تقليده ومحاكاته ومحاولة اللحاق بصاحب القصيدة السابقة .

2 ـ المعاني : تدور في النقائض حول الهجاء والفخر غالبا وبعض الأغراض الأخرى المتباينة ويختار الأول المعاني الحسنة ويترك الآخر يدافع عن نفسه وأما المعارضات فإن المعاني فيها تكاد تكون واحدة وليس فيها شيء من السباب والشتائم إذ مناطها " الجانب الفني وحسن الأداء وربما تزيد المعاني عند اللاحق أو تنقص .

3 ـ التعاصر أو التزامن : هذا شرط ضروري في النقائض أما في المعارضات فلا يشترط أن يكون الشاعران متعاصرين إنما السابق هو الأصل . وفن النقائض في العصرالأموي ليس فنا جديدا كل الجدة في الشعر العربي إنما هو مستحدث للتعبير عن حاجات اجتماعية ونتيجة لظروف سياسية وتطورات عقلية طرأت علي الأمة العربية لم تكن معروفة من قبل إنه في الواقع تطور لفن الهجاء القديم حيث كان العرب في الجاهلية يتهاجون هجاء كثيرا وخاصة عقب أيامهم وحروبهم ولذلك كان آنذاك فنا متقطعا وما كانوا يريدون به إلا إثارة القبيلة للأخذ بالثأر وربما كانت أولي المناقضات في الشعر العربي ما جري بين التبع اليماني الذي يقول : من بحر الكامل :

ياذا الكلام كأنني مورود من دار حمير فالفؤاد عميد

وبين كليب الذي يرد عليه قائلا :

يا ذا الكلام نسيت عقد جدودي فلم أنفت وأنت غير حميد

وكان ذلك في موقعة يوم أراط

ولما نشبت الحرب في عهد الرسول ε بين مكة والمدينة استل شعراء المدينتين بجانب سيوفهم قصائد هجاء كثيرة وظل هؤلاء الشعراء يتقاذفون بأشعارهم وكل

يحاول أن ينفذ إلي ما يؤدي خصومه ولكنها ظلت بسيطة لا يراد بها أكثر من الاستثارة والحث علي الحرب وكان عمرها قصيرا .

ولعل أولي المناقضات التي جرت في صدر الإسلام ما كان بين سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وبين عبد الله بن الزبعري ، إذ يقول أبو بكر في غزوة عبيدة بن الحارث وهي أول قتال حدث في الإسلام :

أري من لؤي فرقة لا يصدها

عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

فيجيبه أبن الزبعري قائلا :

أمن رسم دار أقفرت بالعثاعث

بكيت بعين دمعها غير لايث

حتى إذا ما كان العصر الأموي وعاش العرب معيشة جديدة بعيدا عن البوادي والرعي وصيد الحيوان وعاشوا في المدن الجديدة وكفوا مؤنه العيش بسبب الغنائم الكثيرة التي تملكوها وبسبب الرواتب التي أجريت عليهم وبسبب وقت الفراغ الذي أرادوا أن يشغلوه وكانوا قد شغلوا بعضا منه بجوانب المعرفة والثقافة ولكن جانبا منه ظل باقيا فاتجهوا إلي ضروب من اللهو والتسلية ، ولذا كان الغناء والغزل الصريح في الحجاز وأما في العراق فقد اتجهوا إلي فن قديم هو الهجاء الذي ساعد علي اشتغاله العصبيات القبلية وراحوا يطورونه ليسدوا وقت فراغهم ويمتعهم كنوع من التسلية . ومن ثم يمكن القول إن الأسباب التي أدت إلي ظهور فن النقائض في العصر الأموي كثيرة منها :

1 ـ الظروف السياسية " سبب سياسي :

أدي موقف الدولة الأموية من شعراء النقائض وقبائلهم في العراق إلي اشتعال نار النقائض فلقد " عملت تلك الدولة علي إذكاء نيران العصبيات التي اشتعلت بينها

نتيجة للحياة القبلية ـ ومضت تنفخ فيها لتزيد من تأججها حتى تصرف هذه القبائل المستمرة في هذه المنطقة المضطرمة بحركات المعارضة السياسية عن التفكير في السياسة أو الاشتغال بها إذ مرة تساند تغلب وتارة تناصر قبيلة تميم أو تخاصم قيسا وتارة أخرى يقرب أحد الحكام جريرا أو الفرزدق وهكذا تورطت القبائل وشعراء النقائض في لعبة سياسية خطيرة .

2 ـ أسباب عقلية وثقافية :

فتح العرب الأمم الأجنبية وأخذوا يتحولون في سرعة إلي أمة ذات ثقافة وبمجرد أن عرفوا الثقافات واستوعبوها وارتقي العقل العربي أخذوا يجلسون إلي حلقات الدرس وراحوا يضعون أصول الفقه وغيره من العلوم وراحوا يتناقشون مناقشات واسعة ويتجادلون وهذا ما يشير إليه د شوقي ضيف قائلا وثمة " عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بكل مكان في البصرة ، في المساجد وفي المجالس وفي الطرقات والأسواق وقد استطاعت تلك المحاورات والمساجلات أن تؤثر علي فن النقائض الذي يعد صدي لهذه المساجلات وتقليدا لما كان يدور من محاورات ومناظرات .

3 ـ الأحزاب الدينية سبب ديني :

استخدمت الأحزاب الدينية في هذا العصر الجدال والمناظرة في الدفاع عما تعتنقه من مبادئ وأراء ، وكان طبيعيا أن يتأثر شعراء النقائض بذلك فالعصر كله كان عصر جدال ومناظرة .

وكان علي شاعر النقائض أن يستخدم الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ليثبت صحة رأيه ويقنع الآخرين ويفند مزاعم الخصم كما كان يصنع شعراء وخطباء وعلماء الأحزاب الدينية ومن ثم تحولت النقائض في جوانب منها إلي مجموعة من الأدلة والبراهين .

4 ـ العصبيات القبلية سبب اجتماعي :

حينما نزلت القبائل البصرة والكوفة تحيز كل منها في حيز خاص بها فمكن ذلك لأن تتقابل وأن تعمل علي اجترار الذكريات : ذكريات الأيام والحروب الجاهلية والإبقاء عليها ولذلك كانت تلك الأيام من " أهم المقومات وأكثرها شيوعا في النقائض لقد أسهم بعث الروح القبلية إسهاما كبيرا في ازدهار فن الهجاء الشعري المعروف بالنقائض واستطاع هذا الفن بدوره يعكس في المكان الأول التنافس القبلي في كل مظاهرة الخاصة منها والعامة والحق أن النقائض قد استطاعت أن تحيي ما كمن وتواري من نزعات الجاهلية حتى لقد غدت معرضا لأيام العرب وأخبارها ومفاخرها ومعايبها .

لقد احتشدت تلك القبائل في سوقي المريد والكناسة حول شعراء النقائض مستمعة إلي ما يصوغونه من هجاء وحاثة عليه بكل سبيل ، مذكية ناره ، مؤججة أوراه وقد دفع هذا الأمر بالشعراء إلي التهاجي والخصومة والمنافسة وقد عول أحمد الشايب علي هذا العامل كثيرا إذ يقول من الواضح أن العصبية القبلية كانت الدافع المباشر لما ثار من مناقضة بين الشعراء في الأغلب الأعم .

5 ـ وجدت طبقة عاطلة سبب اجتماعي :

في ذلك العصر طبقة عاطلة أرادت أن تقطع وقت فراغها في فن من فنون التسلية واللهو وقد وجدت بغيتها في شعراء النقائض فاضطر هؤلاء إلي التجويد في شعرهم ليجعلوه فنا يقطع وقت فراغ هذه الطبقة ويسليها ويسري عنها ويشدها إليه .

لقد كان يقصد بالنقائض قبل كل شيء إلي تسلية الجماعة العاطلة التي تكونت في المدينتين الكبيرتين البصرة والكوفة وقد بدأت بأسباب قبلية ولكنها تطورت إلي مناظرة يراد بها ملء أوقات العاطلين حتى لقد غدت فنا يراد به إمتاع هذه الطبقة وتسليتها .

6 ـ الخلافات الشخصية :

كانت هناك خلافات شخصية وعداءات ذاتية بين شعراء النقائض أنفسهم ومن ذلك أن جريرا كان قد سلط علي مجاشع عشيرة الفرزدق سهام هجائه فتصدي له بعض شعرائها ، لكنهم سقطوا دون الارتفاع إلي سمته ، فلجأت العشيرة إلي شاعرها الأعظم الفرزدق تحثه علي دخول المعركة ضد جرير ومن ثم راح كل من الشاعرين يدافع عن قبيلته ويهجو منافسه وعشيرة هذا المنافس هجاء مرا .

عناصر النقائض :

لقد صارت النقائض في العصر الأموي عملا فنيا معقدا يشتمل علي عدة عناصر أهمها وأبرزها ما يأتي :

1 ـ المقصود به حديث الشعراء النقائض حول الأيام والحروب الجاهلية وذكرياتها ، ولذلك أكب شاعر النقائض علي دراسة التاريخ الجاهلي ومعرفة الأيام التي كانت تدور بين القبائل (قيس وتميم وغيرهما) ليختار منها ما يهجو له خصمه ويشينه ويفتخر عليه والحق أن الأيام كانت من أكثر العناصر شيوعا في النقائض ولقد استغلها المتناقضون إما فخرا بها إذا كانت في جانبهم وإما تعييرا لخصومهم ..... وكانت الأيام الجاهلية أشد ظهورا فيما دار بين جرير الفرزدق وذلك كما نقرأ في قول الفرزدق في الحديث عن يوم أراب الذي كان لبني تغلب علي بني يربوع وفيه انتصر الهذيل بن هيبرة ألتغلبي علي اليربوعيين :

وكأن رايات الهذيل إذا بدت

فوق الخميس كواسر العقبان

تركوا لتغلب إذ رأوا أرماحهم

بإراب كل لئيمة مدران

يمشين في إثر الهذيل وتارة

يردفن خلف أواخر الركبــان

ويمكن أن يضاف إلي هذا العنصر الجاهلي الافتخار بالأحساب والأنساب وقد كـون هذا الأمر مقوما من مهما من مقومات النقائض ويتضح ذلك في قول الفرزدق :

وأنا أبن حنظله الأغر وإنني

في آل ضبــة للـمعم المخــول

فرعـان قـد بلــغ السمـاء ذراهما

وإليهما مــن كــل خـوف يعـقل

يابن المراغة أيــن خالــك إننـــي

خالـي حبيش ذو الفعال الأفضل

خالـــي الذي غصب الملوك نفوسهم

وإليه كــان حبـاء جفنه ينقل

2 ـ العنصر التاريخي :

تعد النقائض في جانب منها سجلا مهما ووثيقة تاريخية جيـدة فـي دراسـة التـاريخ وخاصة تاريخ العصر الجاهلي إذ نستطيع أن نتعرف علـي أحـداث تاريخيـة كثيـرة حتى لو لم نعد إلي كتب التاريخ .

والحق أن حرص شعراء النقائض علي تسجيل الأحداث التاريخيـة قـد مهـد السـبيل للمؤرخين وأمدهم بماده وإن لم تكن دائما دقيقة لدراسة تاريخ العـرب قبـل الإسـلام بيد أن هذه المادة التي نظرت إليها الأجيال اللاحقة من ناحية قيمتها التاريخية كانت قضايا حية تعيشها الأطراف المتنازعة وتحس بأثرها المباشر علي عقولها وقلوبها حتى لقد قيل عن الفرزدق لولا شعر الفرزدق لضاع نصف أخبار الناس .

3 ـ العنصر الإسلامي :

يتمثل هذا العنصر في أمور منها : المثل العليا التي استوحاها جرير والفرزدق حينما تحولا بنقائضها أحيانا إلي مديح الأمويين ووصف الخليفة بالعدالة والتقوى والورع والزهد أو حينما ذكر كل منهما ما لقبيلته من دور في الدفاع عن الإسلام والإسراع إلي الدخول في الدين أو حينما تحدثا عن الأيام الإسلامية أو حين استوحي كل منهما المعاني والقيم الإسلامية واستلهم التراث الإسلامي لغة ومعني وأسلوبا ، وذلك كما يظهر في قول الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بني لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

فهو متأثر فيه بقول رب العزة سبحانه وتعالي "ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ".

ويظهر أيضا في قول جرير :

لما رأوا جم العذاب يصيبهم صار القيون كساقه الأفيال

فهنا تأثر واضح بسورة الفيل

4 ـ العنصر السياسي :

ويظهر هذا حينما كان شعراء النقائض يتعرضون لمواقف قبائلهم من الخلافة سواء بالتأييد أم بالمعارضة ، ويتجلي ذلك في قول جرير :

فغيرك أدي للخليفة عهده وغيرك جلي عن وجوه الأهاتم

5 ـ العنصر الفكاهي :

هو عنصر كان الشاعر يدمج فيه بين الهجاء ووصف الآخر وتصويره صورة كاريكاتورية ساخرة مضحكة تدفع جمهور الحاصرين إلي الضحك والمزاح ، هذا الجمهور الذي جاء في الأصل للتسلية والفرحة وقطع وقت الفراغ ولذلك كان يعمد

شاعر النقائض إلي رسم هذه الصور الساخرة ليتسلي هذا الجمهور ويضحك ويتندر ومن علي سبيل المثال قول الفرزدق :

إنا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانه يتقمل

ومثل قول الأخطل في هجاء جرير :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي علي النار

فتمسك البول بخلا أن تجود به وما تبول لهم إلا بمقدار

طرق (صور) المناقضة :

يجب أن نلاحظ أن النقائض في العصر الأموي تحولت بين الشعراء إلي نوع من المناظرة والمساجلة كما يلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا متخاصمين لأنهم علموا أنهم يقودون مناظرة لتسلية الجمهور الملتف حولهم و إمتاعه في إعجاب هذا الجمهور وقد أخذت تلك المناظرات الشعرية (النقائض) صورا وطرقا متعددة منها علي سبيل المثال :

أ ـ أن يرسل الشاعر نقيضته في الجمهور فيتناشدها وينقلها إلي الخصم الذي يتفرغ لقراءتها ودراستها وتقض معانيها وهذه هي الصورة الشائعة الذائعة من صور النقائض وهنا يجب أن تشير إلي أن النقيضة الثانية عادة ما تكون أضعف من الأولي لأن الجمهور كان يتعجل الرد من الشاعر الثاني .

ب ـ أن يعود الشاعر الأول إن قصيدته الأولي فيضيف إليها أبياتا متصلة بأحداث جديدة إذ ليس من الحتم أن يكتب قصيدة ثالثة وقد يعود إلي قصيدة قديمة فيضيف إليها أبياتا أيضا ويجعلها نقيضة .

ج ـ المواقفة : وهي أن يأتي الشاعران وقد استعدا وأخذا أهبتهما وهيئا ما يتفاخران به فيقفان في مكان واحد ومكانين متقاربين يحيط بكل منهما أنصاره

ومؤيدوه يسعون بينهما بالأشعار والأخبار وكل من الشاعرين ينال من خصمه ويرد عليه أقواله .

د ـ ما يحدث بين شعراء النقائض أمام الأمراء والقادة والخلفاء .

أهم السمات الفنية للنقائض :

تتسم النقائض غالبا بسمات فنية أهما أبرزها ما يأتي :

أ ـ الطول : فلقد جاءت أكثر النقائض طويلة وبلغ بعضها أكثر من مائة وخمسين بيتا .

ب ـ جزالة الأسلوب : وقوة اللفظ وإحكام العبارة حتى لقد قيل عن الفرزدق كأنه ينحت من صخر .

ج ـ العناية بالمقدمات والاهتمام بالمطالع والتجويد فيها : وقد جاء كثير من المطالع غزلية (مقدمات غزلية) مع ملاحظة أن الفرزدق لم يلتزم الغزل التزام مطالع جرير به .

د ـ بداوة الخيال : ونقصد بذلك أن كثيرا من صور شعراء النقائض جاء مستمدا من مشاهد البادية التي اتخذوها منبعا لا ينضب .

هـ ـ التكرار في الصور : تكرر كثير من الصور عند هؤلاء الشعراء ومن يقرأ النقائض " يشعر أنه أمام أنماط وصور مكررة لا تختلف من شاعر إلي شاعر ولا تختلف فيها طبيعة تجربة عن تجربة ولكن ليس معني ذلك أنهم لم يبدعوا صورا أو خلا شعرهم من صور جديدة علي الإطلاق .

و ـ النزعة التقليدية : والمقصود بها أن شعراء النقائض قد استمدوا من التراث صورا قديمة وألفاظا لم تعد تلائم روح العصر الذي عاشوا فيه وغلب عليهم التأثر بالتراث القديم .

ر ـ وجود صور ساخرة مضحكة : ولكن مهما كانت فإنها صور بسيطة قريبة مألوفة للإنسان العربي ومن ذلك قول جرير وهو يسخر من قصر الفرزدق :

وهل كــان الفرزدق غير قـرد

أصابته الصواعق فاستــدارا

فيرد عليه الفرزدق قائلا :

رأيت أبن المراغة حين ذكي تحول غير لحيته حمارا

قيمة النقائض :

للنقائض قيم عديدة وفوائد جمة يمكن أن نذكر بعضها فيما يلي :

1 ـ تمثل لنا النقائض نهضة فنية عظيمة في العصر الأموي .

2 ـ النقائض ثروة لغوية هائلة اكتسبت منها معاجمنا مادة وفيرة في اللغة .

3 ـ تركت النقائض للأدباء علي مر العصور ذخيرة كلامية ومعاني جديدة .

4 ـ ارتقت النقائض بالشعر رقيا عظيما : معني ولفظا وصورة وأسلوبا

5 ـ تركت النقائض ثروة نقدية عظيمة .

6 ـ تعد النقائض تأريخا للحياة الجاهلية وتصويرا لأيامها

7 ـ صورت النقائض جوانب كثيرة من الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

8 ـ تعد النقائض مصدرا خصبا لدراسات متنوعة : أدبية واجتماعية ولغوية .

سلبيات النقائض :

1 ـ أدت إلي إثارة العصبية القبلية .

2 ـ بها كثيرة من الفخر المبالغ فيه .

3 ـ الفحش والإقذاع والسباب والشتائم والهجاء اللاذع وذكر المقابح والسوءات وقذف المحصنات وذكر العورات .

4 ـ التعرض للأغراض مما أدي إلي إثارة الحفيظة أحيانا .

5 ـ أدت في بعض الأحيان إلي العنف وسفك الدماء .

ـــ جرير:

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ومولده :

هو جرير بن عطيه بن الخطفي , والخطفي لقب واما اسمه فحذيفه بن بدر بن سلمه بن عوف بن كليب بن يربوع . وكنيه جرير ابو حزره (حزره ابنه الاكبر),كما كني بابن المراغه وهي من الاسماء القبيحه للاتان . وقد اختلف في سنه مولده ولكن اشهر الاراء انه ولد سنه ثلاثين للهجره تقريبا , ولكن لم يختلف في مكان الميلاد فلقد ولد في باديه اليمامه حيث كان بنو كليب ينزلون بقريه حجر احدي قري اليمامه في الجنوب الشرقي من نجد (الرياض الان). وقد ولد لسبعه اشهر , وقد سمته امه جرير لانها رات كانها ولدت حبلا اسود يقفز علي الناس فيخنق من يقفز عليه ولما ذهبت الي احدي مفسري الرؤي قال لها لتلدين شاعرا ذا منطق جزل وذا قوه وشكيمه .

ـــ اسرته :

ينتهي نسب جرير الي بني كليب اليربوعيين التميمين , وقد كان والده عطيه رجلا مضعوفا (به ضعفه وهي ضعف الفؤاد) مختلفا في المال ص 153

مبخلا, وكان شاعرا , وكانت ام عطيه (النوار بنت يزيد) من كليب ايضا واما ام جرير فهي ام قيس وينتهي نسبها الي بني يربوع ايضا .

واما جده الحظفي فكان كثير المال من الغنم والحمير وكان كريما وكان شاعرا, وكان لجرير اخوان هما عمرو(عمر) وابو الورد وكان عمرو اكبر من جرير وكان يقارضه الشعر .

واذا لم يكن جرير قد نشا في بيت مجد وعز فانه نشا في بيت شعر وقد ورث الشعر عن ابيه وجده وكان جده يلقنه الشعر , وقد ورث جرير الشعر لابنائه من بعده.

ـ نشاته وحياته :

نشا جرير في اليمامه بدويا فقيرا يرعا لابيه غنيمات من الضان والمعزي , وقد تفتحت شاعريته مبكرا ولما يبلغ الخامسه عشره من عمره بعد , وقد قارض اخاه عمرا الشعر , وهاجي غسان السليطي , ومازال بالباديه حتي وفد علي يزيد بن معاويه شابا ونال احدي جوائزه علي ابيات يقول فيها :

واني لعف الفقر مشترك الغني سريع اذا لم ارض داري . انتقاليا

وقد وفد بعد ذلك علي البصره وراي ما يتمتع به الفرزدق فنفس عليه مكانته , واخذ قومه يرغبونه في سكني العراق حتي يشيع ذكره وفي العراق اتصل بالحكم ابن ايوب عامل الحجاج بن يوسف الذي كان طريقا الي اتصاله بالحجاج فاتخذه الحجاج شعارا له , ولما شاع شعره اتصل بعبد الملك بن مروان الذي يقول فيه :

لولا الخليفه والقراءن يقراه ما قام للناس احكام ولا جمع

واتصل ببشر بن مروان وبولاة ابن الزبير وبعمر بن عبدالعزيز الذي انشده قصيده يقول فيها :

انا لنرجوا اذا ماء الغيث اخلفنا من الخليفه ما نرجو من المطر

واستمر يمدح الخلفاء الامويين وابناءهم واخواتهم حتي لقد صار داعيه للامويين منذ ان عرف عبدالملك بن مروان , وظل يتردد علي العراق حيث نشبت معركه النقائض بينه وبين خصومه من الشعراء والتي لم تتوقف الا بوفاه الفرزدق فسكت لسان جرير.

ولم يعيش الفرزدق طويلا بعد وفاه الفرزدق حيث مات بعده بعده اشهر وكان ذلك سنه 114 ه (وان اختلف في ذلك).

ـــ صفاته:

لم يكن جرير طويل القامه قوي الجسم كما ادعي البعض بل كان ضعيف البنيه , وكان لديه خنخنه (غنه)في الكلام حيث كان الكلام يخرج من انفه. واما اهم الصفات الخلقيه فهي انه كان متدينا عفيفا سريع البديهه زكيا لماحا غيور علي قومه معتز بنفسه معتدا بذاته وبشعره , رقيق الطبع مرهف الحس والمشاعر وفيا عفوا متسامحا.

ـــ علاقته بالشعراء ومكانته الشعرية :

تفتحت موهبه جرير مبكرا كما ذكرنا. وكانت بدايتها حينما رد علي غسان السليطي الذي هجا والد جرير وقومه اثر منازعه حدثت بين بني سليط وبني الخطفي يقول جرير في ذلك :

لا تحسبنني عن سليط غافلا ان تعش ليلا بسليط نازلا

ودارت معركه هجائيه بين السليطي وجرير ولم يكن جرير قد بلغ الخامسه عشر من عمره واستطاع جرير ان يتغلب عليه ويلتحم بعد ذلك مع الاعور النبهاني وحكيم بن معيه ثم البعيث المجاشعي وهكذا ص 155

حتي التحم مع الفرزدق وكان سبب ذلك ان الفرزدق وزوجته كان قد نزلا علي جرير في طريق العوده من الحج سنه 64 ه واعتذر جرير عما بدر منه من هجاءه

البعيث وانشده قصيده اعجبت النوار (زوجه الفرزدق) وقالت : قاتله الله ما ارق منسبته واشد هجاءه فدخلت الغيره قلب الفرزدق وقال اترين هذا اما اني لن اموت حتي ابتلي بهجاءه ثم سلط جرير هجاءه علي نساء مجاشع فشكون للفرزدق فانطلق قائلا :

الا استهزات مني هنيده ان رات اسيرا بداني خطوه حلق الحجل

واستمرت النقائض بينهما حوالي سبع سنوات وجرير مقيم بالمروت في اليمامه والفرزدق في العراق حتي انتقل جرير الي العراق ثم دخل الاخطل بعد ذلك في تلك المعركه.

ومن الشعراء الذين دخلوا تلك المعركه عمر بن لجا التميمي والسرندي وعبيد بن حصين ابوجندل الراعي والعباس بن يزيد الكندي والاشهب بن رميله النهشلي والمرار بن منقذ العدواني وجفنه الهزاني والدلهمس وسراقه بن مرادس البارقي والصلتان العبدي وعدي بن الرقاع والاقيشر الاسدي وغيرهم .

وقد استطاع جرير ان يتغلب عليهم جميعا ماعدا الفرزدق والاخطل . وقد ذكر الاصمعي كما ورد في الاغاني ان جريرا كان ينهشه ثلاثه واربعون شاعرا فيبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحد واحد .

وقيل انه تغلب علي ثمانين شاعرا وثبت له الفرزدق والاخطل وقد قيل انهما لو تفرقا لانتصر عليهما .

وقد سال رجل جرير" من اشعر الناس ؟ فقال له قم حتي اعرفك الجواب فاخذ بيده وجاء الي ابيه عطيه وقد اخذ عنزا له فاعتقلها وجعل ص 156

يمص ضرعها فصاح به اخرج يابت فخرج شيخ تميم رث الهيئه وقد سال لبن العنز علي لحيته فقال له : الا تري هذا؟ قال نعم " قال او تعرفه ؟ قال لا " قال هذا ابي, افتري لم كان يرضع العنز ؟ قال لا , قال مخافه ان يسمع صوت الحلب فيطلب

منه اللبن ثم قال : اشعر الناس من فاخر بهذا الاب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعا"

لقد كان جرير شاعرا فحلا مقدما وقد شهد هو لنفسه وشهد له غيره من الاعراب والخلفاء والنقاد والرواء .

- قال هو عن نفسه : " لقد بحرت الشعر بحرا "

- وقال:"اني لمدينه الشعر التي منها يخرج واليها يعود وفي روايه " انا مدينه الشعر "

- وقال ابن سلام الجمحي ":لم يتصل الشعر في ولد احد من فحول الجاهليه ما اتصل في ولد زهير , وفي ولد احد من الاسلاميين ما اتصل في ولد جرير وقدمه ابن سلام علي غيره من الشعراء حتي جعل راس الطبقه الاولي من الاسلاميين .

- وقال عنه علاء العنبري " يجيء جرير سابقا ومصليا وسكيتا .

- -وقال جرير لرجل من بني طهيه : اينا اشهر انا ام الفرزدق؟ قال له انت عند العامه وهو عند العلماء فصاح به جرير : انا ابو حزره غلبته ورب الكعبه ما في كل مائه رجل عالم واحد .

- وقال رجل للفرزدق : يا ابا فراس هل تعلم اليوم احد رمي معك ؟ فقال: لا والله , ما اعرف نابحا الا وقد استكان ولا ناهشا الا وقد انجحر الا الذي يقول وذكر ابيات لجرير منها

- لساني وسيفي صارما كلاهما وللسيف اشوي وقعه من لسانيا

- وقال بن داب : كما يروي بن سلام : وسئل عنهما فقال الفرزدق اشعر عامه وجرير اشعر خاصه ص 157 وقال بشار العقيلي : كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق .

- -ويروي بن سلام انه "لما بلغ الخطل تهاجي جري والفرزدق قال لابنه مالك انحدر الي العراق حتي تسمع منهم وتاتيني بخبرهما فلقيهما ثم استمع فاتي اباه فقال: جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر فقال الاخطل : فجرير اشعرهما "

- ولما سئل النصيب عن اشعر الناس قال : اخو بني تميم .

- وقال سبه بن عقال وكان عند هشام بن عبد الملك وقد سئل عن الشعراء الثلاثه "اما اغزرهم بحرا وارقهم شعرا واهتكهم لعدوه سترا الاغر الابلق الذي ان طلب لم يسبق وان طلب لم يلحق فجرير" :

- وقال بعض الرواه :كان جرير ميدان الشعر من لم يجر فيه لم يرو شيئا

- وقال بن قتيبه:"كان جرير من فحول شعراء الاسلام ويشيبه من شعراء الجاهليه الاعشي .

- وقال الفرزدق :" ما احوجه مع عفته الي صلابه شعري ما احوجني الي رقه شعره ". وقد سار شعر جرير كثيرا بل كان اكثر اهل زمانه سيروره في الشعر حتي لقد قال الفرزدق " لقد رزق جرير سيروره من الشعر لم ارزقه .

- وقال الفرزدق مره " لقد اوتي جرير من سير الشعر ما لم نؤته " حتي لقد اتهمت الجن باذاعتها .

ولقد اجاد جرير في فنون كثره منها .:المديح والهجاء والرثاء والغزل وشهد له بذلك بعض العرب وبعض الرواه ولقد روي بن سلام قال : لقيت ص 158

اعرابيا اعجبني ظرفه وروايته فقلت له ايهما عندكم اشعر ؟ (يعني جريرا والفرزدق) فقال بيوت الشعر اربعه : فخر ومدح وهجاء ونسيب وفي كلها غلب جرير فقال في الفخر

-اذا غضبت عليك بنو تميم ****حسبت الناس كلهم غضابا

وقال في المدح

-الستم خير من ركب المطايا ****واندي العالمين بطون راح ؟

وقال في الهجاء :

-فغض الطرف انك من نمير ** فلا كعبا بلغت ولا كلابا**

وقال في النسيب:

-ان العيون التي في طرفها حور** قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا**

وقيل انه تفوق في الرثاء ايضا وذلك في قصيدته التي يرثي فيها زوجته ام حزره والتي يقول فيها

-لولا الحياء لها جني استعبار ****ولزرت قبرك والحبيب يزار

ـ شعره:

يذهب شعر جرير في اغراض كثيره اهمها ما ياتي

ا- الهجاء

الهجاء هو الفن الشعري الذي لم يستطيع شاعر التحم معه ان يجاريه او يباريه فلقد تفوق جرير في هذا الفن تفوقا عظيما " وكان يعرف كيف يريش سهامه ويسددها الي نحور خصومه محملا لها كل ما يمكن من سموم " ولذلك نري مروان بن ابي حفصه يشهد لذلك فيقول

-ذهب الفرزدق بالفخار وانما*حلو الكلام ومره لجرير**

وكان اذا هجا امض والم خصمه , واظهر ما فيه التهكم والاستهزاء بخصمه ورميه بما يضحك منه الناس , ولذلك كان يقول لبنيه اذا مدحتم فلا تطيلوا المادحه واذا هجوتم فخالفوا ويقول : اذا ص 159

هجوت فاضحك . وكان اذا هجا عير بالمثالب وتعرض للاعراض وشنع بالاباء والاجداد , ولكن يجب ان يلاحظ انه لم يبدا احد بالهجاء بل كان ينتقم ممن اذاه وظلمه وظلم قومه او تعرض له بالاهانه واعان عليه ولذلك قال له الحجاج : علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : والله اني ما اظلمهم ولكنهم يظلمونني فانتصر " وقيل له مره علام تقذف المحصنات ؟ قال انهم يبدءونني ثم لا اعفو .

لقد كان جرير سليط اللسان هجاء , وكان هجاءوه اشبه بريح عاصفه تقتلع من يتعرض له وكان بارعا في السخريه وتصوير الخصم في صوره مضحكه حيث يلبسه ثوب المذله والصغار وكان كثيرا ما يستخدم الالفاظ التي تدل علي الاستخفاف والخزي ولعل قصيده في الهجاء لم تبلغ ما بلغت قصيدته التي يرد فيها علي النمير الراعي والتي يقول فيها :

-فغض الطرف انك من نمير ***فلا كعب بلغت ولا كلابا

ومن امثله هجائه المر قوله في الفرزدق :

زعم الفرزدق انه سيقتل مريعا *ث**ابشر بطول سلامه يامريع

وغير ذلك كثير جدا ويتجلي هذا الغرض بكل وضوح في نقائضه التي خاضها ضد من التحم معه خاصه الفرزدق والاخطل .

والحق انه كان عنيفا في هجائه شديدا في سخريته مؤلما في قسوته وخاصه حينما يتعرض للحرمات والاعراض .

<u>ب-المدح :</u>

لجرير مدائح كثيره في شخصيات عديده فلقد مدح الخلفاء الامويين وابناءهم واخوتهم ومدح الولاه الذين اتصل بهم وعلي راسهم الحجاج بن يوسف الثقفي .

ص 160

وهو يعني كثير بتصوير شخصيه الممدوح وخاصه الولاه الذين كان له اتصال وثيق بهم والفه معهم , يقول مادحا الحجاج وقد صوره مدافعا عن خلافه المسلمين ومحاولا ارساء الحكم وتوطيد السلطان:

-ماضي علي الغمرات يمضي همه ***والليل مختلف الطرائف داجي

ويمضي فيصور هؤلاء الولاه في صوره الابطال الصناديد المدافعين عن الخلافه والخلفاء فهو يذكر اعمال الممدوحين بالاضافه الي تصوير شخصيتهم تصويرا رائعا.

وحينما يمدح الخلفاء الامويين يهتم بوصفهم بصفات دينيه كالعدل والامانه والورع واقمه الحدود والفرائض والتمسك بالكتاب والسنه ويركز علي نسبهم الي قريش واصلهم الرفيع وكرمهم وسخائهم وتظهر مثل هذه المعاني في قوله في مدح عبدالملك بن مروان :

-الستم خير من ركب المطايا ***واندي العالمين بطون راح

ويقول في مدح عبدالعزيز بن االوليد :

الست بن الاثمه من قريش ***وارحبها بمكرمه زراعا

وهو دائما يجتهد في تصوير محاسنهم واظهار مكارمهم واصلهم وشرفهم وفضلهم وهو في كل ذلك يستمد كثيرا من المعاني الدينيه والشمائل الخلقيه ويتجلي مثل ذلك في قوله الذي يمدح فيه هشام بن عبدالملك:

وجعل الله يعصمكم قواه***فلا تخشي لعروته انفصاما

وفي قوله:

-تباشرت البلاد لكم بحكم اقام لنا الفرائض واستقاما

ويلاحظ علي مدائح جرير انها لم تطل كما تطل كما طال هجاؤه وانه اتخذ هذه المدائح تقربا وتزلفا الي الحكام والولاه :ولذا طبعت بطابع النفعيه و الاستجداء , وقد اتخذها وسيله للتكسب ومن ثم اتسمت بالشكوي والتوجع والانين لاستماله الممدوح واستعطافه وذلك كما يظهر في قوله الذي يمدح فيه الحجاج :

الا نشكو اليك زمان محل ***وشرب الماء في زمن الجليد

ومعتبه العيال وهم سغاب *** علي در المجالحه الرقود

والحق ان جريرا بمدائحه الامويين قد صار داعيه لهم بلا مبالغه .

ج-الغزل:

لقد اجاد جرير في الغزل الذي جاء عنده رقيقا ايما رقه ولعل ذلك راجع الي رقه قلب جرير وصفاء نفسه .

واكثر غزله كان في وصف زوجاته من حيث الوقوف علي قسامه الوجه وملاحه القد وقد عبر فيه عما يكنه نحوهن من حب وود.

وهو في غزله يقف علي الاطلال ويرنو الي بقايا الديار – ديار المحبوبه

-كعاده الشعراء العرب : لانها تذكره بالحبيب الذي كان فيها ثم ظعن فيستعيد الذكريات ويجتريها فيهتف قائلا :

-الا حي المنازل والخياما وسكنا طال فيها ما اقاما

-منازل قد خلت من ساكنيها عفت الا الدعائم والثماما

-محتها الريح والامطار حتي حسبت رسومها في الارض شاما

ويدعو للطل بالقباء فيقول: ص162

-بقيت طلولك –ياميم-علي البلي لا مثل ما بقيت عليه طلول (1)

وهذا يدل علي ما يكنه للمحبوب من عشق, وهيام والحق انه يقف كثيرا علي الاطلال محييا ومسترجعا الذكريات وداعيا لها بالسقيا والبقاء بالاضافه الي ذلك يتحدث عن مشاعره تجاه المحبوبه من حزن وفرح وعشق وصبابه وهوي فاذا ما دنا الرحيل خيم الحزن عليه واذا ما كان اللقاء ما جت بنفسه مشاعر الفرح وانظر الي هذين البيتين يستبن لك ذلك , يقول في منظر الوداع :

-اقول لصحبتي لما ارتحلنا ودمع العين منهمر سجام

-اتمضون الرسوم ولا تحيا كلامكم علي اذن حرام (2)

ويقول ساعه اللقيا:

فلما التقي الحيان القيت العصا ومات الهوي لما اصيبت مقاتله (3)

ويقف عند المحبوبه واصفا اياها ,مصور شغفه بها ومتحدثا عن الوجد الذي شفه فيقول :-

اعالج برحا من هواك وشفني فؤاد اذا ما تذكرين خفوق(4)

ويتحدث كما يتحدث العشاق المولهون المدلهون عن الصبابه والهوي والعشق والجوي ويشير الي ذكرياته والي الوشاه والعاذلين ويدير احيانا قصصا جميلا مملوءا بالخيال كما يذكر احيانا الوعود الكاذبه ومنعه المحبوبه وحجبها واقصاءها وغير ذلك من المعاني التي دارت لدي العشاق العذريين .وله بالاضافه الي ذلك غزل حسي يصور فيه محبوبته تصويرا ماديا فيصف الوجه وما به من خدود وعيون وشعر وجيد ولعل من اجمل ما يذكر في ذلك قوله : ص 163

-ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحبين قتلانا

-يصرعن ذا اللب حتي لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا

ويتحدث عن الفم الاحوي وما يحوي من اسنان براقه لامعه متلالئـه كانهـا المـزن او البرد فيقول :

-تجري السواك علي اغر كانه برد تحدر من متون غمام

ويصف الخدود الاسيله والجيد الطويـل والارداف الثقيلـه ورشـاقه القـوام الـذي يشبه غصن بان . لقد استطاع جرير ان ينسب نسبيا رائعا , ومـع ذلـك يقـول " مـا عشقت قط ولو عشقت لنسبت نسبيا تسمعه العجـوز فتبكـي علـي مـا فـات مـن شبابها "

د- الرثاء:

تفوق جرير في فن الرثاء وذلك لما تمتع به من نفس صافيه وطبع رقيق وحسـن دقيق وعواطف جياشه ووفاء جميل ولذلك اهتزت نفسيته اهتزازا عظيما حينمـا رثي زوجته وابنه وحتي حينما رثـي خصـمه الفـرزدق وكانمـا كـان يرثـي نفسـه ورثي اخويه وبعض من اتصل بهم من الخلفاء والولاه .

لقد التاعت نفس جرير وروعت بـالموت فـراح يبكـي ويحـزن ويتـالم ,ويقـول فـي رثاء زوجته (خالده)ام حزره :

-لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولقد نظرت وما تمتع نظره في اللحد حيث تمكن المحفار

ولهت قلبي اذا علتني كبره وذو التمائم من بنيك صغار

ولروعه هذه القصيده وقوة تعبيرها عن عاطفه حزينه جياشه وقفت نسـاء قبيلـه الفرزدق ينحن بها علي النـوا ر زوج الفـرزدق حينمـا ماتـت .لقـد ترقرقـت ماقيـه حزنا عندما مات ابنه سواده وتجرع الالم غصصا عليه فقال :

-قالوا نصيبك من اجر فقلت لهم من للعرين اذا فارقت اشبالي

فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمه البالي

لقد تفجع علي ابنه تفجعا شديدا حتي لقد تمثل بشار بهذه القصيده في وفاء ابنه .

ورثي خصمه الفرزدق رثاء حزينا داميا حارا فقال :

-فلا حملت بعد الفرزدق حامل ولا ذات حمل من نفاس تعلت

هو الوافد المجبور والحامل الذي اذا النعل يوما بالعشيره زلت

وله الي جانب ذلك ابيات اخري في رثاء الفرزدق وله ابيات في رثاء الاخطل .

سمات شعر جرير :

تكثر القصائد في شعر جرير ويبدا اكثرها بمطالع تقليديه ويغلب علي هذه المطالع الحديث عن الاطلال والدمن وبقايا الديار والربع الذي هجره الاحباب وغالبا ما يبدا حديثه بالاساليب الانشائيه استفهاما أو

امرا. وتشيع عنده مجموعه من الاوزان اهمها الطويل الوافر ثم الكامل والبسيط وكان مغرما بقافيه الراء والدال واللام والنون .

وقد جاءت الموسيقا عنده واضحه في الوزن والقافيه عذبه رقيقه .

واما الاسلوب فقد جاء متنوعا ما بين الخطاب الي الغيبه وما بين الاسلوب الخبري والانشائي ,ولا نعدم عنده المحسنات البديعيه من مقابله وطباق , كما يبدو عنده التكرار والمبالغه والتاثر بالاسلام قرأنا وحديثا وقصصا دينيه .

لقد كان شعره "لايباري في عذوبه كلمه وحلاوه "نغمه,وقد جرت اشعاره صافيه كانها الجدول الرقاق ,اشعار تلذ الاذن بكمال جرسها وتلذ النفوس والافئده "بجمالها ورقتها وعذوبتها وحلاوتها .

نظرة نقدية لشعر الفرزدق

مقتطفات من كتاب: النقد البيئي قراءة في شعر صدر الإسلامي وبني أمية

رمزية الذات والطبيعة في إبداع الفرزدق:

يتمزق الشَّاعرُ الإنسان بين شأن سما في سماء البيئة العربية كان منحةً ربانية أهدتها إليه القبيلةُ (بنو تميم) جاهًا وسؤددًا وشَمَمًا، يقابله شعورٌ قاسٍ بضآلة الشأن وذل الرفض ومعاناة القبح الذي يستشعره خاصةً في علاقته بالمرأة طيلةَ حياتِه ؛ حيث لم تكن دلالة وجود المرأة في نصه " كشيوع اسم ليلى في قبيلة عامر بن صعصعة، وسلمى في غطفان كرمز لقيم القبيلة ومشروعاتها .. "( )، إنما كان تعبيرًا عن عجز يقابله في قبحِه بعنفٍ ومجون علاوةً على صدى هذا القبح في وجوده الإنساني والكوني الذي اشتقّ منه اسمه (الفرزدق) معبرًا عن هيئة صارت تنفر منها المرأة، وأبَى هو أن ينفر منها المجتمعُ العربي وهو سليل العظماء بيضِ الأيادي ؛ فتصدّى لهذا بنفسٍ متعجرفة غاشمة في مواجهتها للآخر متأزمة في موقفها الإنساني والاجتماعي، تمتدح وتهجو في لسانٍ واحدٍ تستحسن وتستقبح بين لحظات يتخبّط هو فيها ضعفًا لا قوة كما عُرِف عن هذا الفرزدق .. مهانةً وضيْمًا لا أنفة وتَأبُّهًا حدا به أن ينصهر مع البديل الكوني للإنسان عنده وهو الحيوان ، وحركية الكون في صوامته / رياح الصبا ؛ " فالحركة من عناصر الطبيعة "( ) التي تتبادل "مع الإنسان أماكنها في حلول لطيف (..) استطاع فيه

الشاعرُ أن يحافظ على إيحاء كل صورة حتى في غيابها، وأن يوظف ذلك كله في خلق مناخ شعري مكثّف"( ) يتجلى هنا ، مثلًا في قوله ( ):

وَمُسْتَنْبِحٍ وَاللّيلُ بَيْني وَبَيْنَهُ

يُرَاعِي بِعيْنَيْهِ النّجُومَ التّوَالِيَا

سَرَى إذْ تَغَشَّى اللّيلُ تَحْمِلُ صَوْتَهُ

إلىَّ الصَّبَا، قد ظَلّ بالأمسِ طَاوِيَا

دَعَا دَعْوَةً كَاليَأْسِ لمّا تحَلّقَتْ

بهِ البِيدُ وَاعْرَوْرَى المِتَانَ الفَيافِيَا

فقُلتُ لِأَهْلي: صَوْتُ صَاحِبِ نَفْرَةٍ

دَعا أوْ صَدَىَ نَادَىَ الفِرَاخَ الزّوَاقِيَا

تأَنّيْتُ وَاستَسمَعتُ حتَّى فَهِمْتُهَا،

وَقَد قَقّعَتْ نَكْبَاءَ مَنْ كَانَ سَارِيَا

فقُمتُ وَحَاذَرْتُ السُّرَى أنْ تَفُوتَنِي

بِذِي شُقّةٍ تَعْلُو الكُسورَ الخَوَافِيَا

فَلَمّا رأيتُ الرّيحَ تَخْلِجُ نَبْحَهُ

وَقَدْ هَوّرَ اللّيلُ السِّماكَ اليَمَانِيَا

حَلَفْتُ لهُمْ إنْ لمْ تُجِبْهُ كِلابُنَا

لأَسْتَوْقِدَنْ نَارًا تُجِيبُ المُنَادِيَا

عَظِيمًا سَنَاهَا للعُفَاةِ، رَفِيعَةً،

تُسَامِي أُنُوفَ المُوْقِدِينَ فَنائِيَا

ويستخدم الفرزدقُ الحيوانَ / مفردة بيئية من الطبيعة الحية ، ويضفي عليه مِن الأنسنة ما يحيله " لكائن ذي وظيفة إبداعية" ( ) ؛ فيحمّله حوارًا متبادلًا معه ليصل في نهاية الأمر إلى دمغ هذه الكينونة الملتحفة بعظمة ال "نحن" /القبيلة خالعًا عليها كل ما أوتيت البيئةُ من قيم القبيلة ورواج هذه القيم فخرًا بين جنباتها وجنبات الفرد المنتمي إليها قلبًا وقالبًا؛ حيث يمثل التجاءُ الفرزدق إلى متسع الكون ومفرداته /الطبيعة ـ حتى وإنْ كانت في أشرس صورها ـ ذروةَ إحساسه العميق بالضعف والخذلان لا سيَّما أنك لا تجد مثل هذا الالتجاءِ سوى عند شعراء الضعف الإنساني كالصعاليك والسود ، وأظن أنه مِن خلال السياق التاريخي للنص ـ الذي يذهب إلى أنه قيل بعد طلاقِه للنوار زوجتِه / الحبيبة المتمنِّعة بعد أن أعيته الوسائلُ لإرضائها ـ يمكنك أن تستشعر سببية هذا الشعور بالخوف الذي دفعَه للالتحاف بعدوه الكوني/ الذئب رغم ما يقبع فيه من أنس مكانتِه المادية المكانية / نسبه ، لكنها هيهاتَ أن تعوّضه عمَّا غاب من طمأنينة نفسه وسلامها الدفين رغم إشارته إلى نفسه الاجتماعية وتغنّيه بها ـ وكأنه حديث نفسٍ بين القبول والرفض، بين الإثبات والنفي، لإحساسه بمكانة هي لم تداوِ داءَه بعدُ "عظيمًا سناها " و" تسامي أنوف الموقدين " ــ وإلى وجودها في نفسه بتلك

الرمزيـة التـي أسقطها علـى الحيـوان أيضًـا ، لكنهـا فـي ثـوبٍ آخـر مـن الأنسـنة " يراعي النجوم .." ، " قد ظل بالأمس طاويًا.." و" دعا دعوة كاليأس.." حين جعل الكلبَ الذي تراه " مرة متوحدًا منفردًا ومرة مجتمعًا .." ( ) دليلًا لقومِـه وأداةً لهم فيما يختص بقيم بيئتهم / الكرم ، تسانده في هذا تلك المفردة الجامدة أو المقدّس القديم للعرب الذي توسَّد عليـه فـي حياتـه الماديـة والمعنويـة / النـار( ) ؛ لتتجلـى النـار هنـا، داعمـة لوجـود المجمـوع / القبيلـة تفوقهـا الإنسـاني والمجتمعـي الـذي يستند إليه في حواره النفسي الكاشف إذا ما قابله بنقصه الفردي المزعوم ، بيْدَ أن الفرزدق لا يستطيع الفكاكَ مُطلقًا من أَسْر شعوره بالانتقاص ؛ الأمرُ الذي دفَعه دائمًا إلى النقيض، ولعل كُتُبَ الأدبِ تحمل أدلـةً غزيرة وعميقـة المغزى فـي أخبـاره التي تتناقلها من غلظة شِعره ولحنِه فيه ، والذي يقصد إليه قصدًا رغبةً فـي التميز والإغراب والشعور بالذات، وأظن أن مَن يملك شيئًا لن يحاول أن يبحث عنه!.

ولا عجب أن ترى هذا الإفراطَ في التغني بالأنا وتعظيمِها حتـى فـي مواقـف الضعف الإنساني التي يتساوى فيها كل الناس لا فرق بينهم فيها، فهذا هو الفرزدق يبحث عن ذاته وقوامها النفسي ليباهي بها الشعرَ نفسَه وليس المجتمع فقط ، فـي رثائـه لبَنِيه، ورغم بكائية عاطفته التي تتحسّسها صادقةً سرعان ما تتشظّى ذاتُه السوية لتكشف ذلك الاضطرابَ البغيض فـي نفسية ذلك الشَّاعر حين يتفقّد ملامـح فتوّتِـه المعنوية والماديّة في ثنيات سطوع المشهد البيئي أمامَه في قوله( ) :

وكُنْتُ بهم كاللّيْثِ في خَيْسِ غَابةٍ

أَبَى ضَارعاتٍ كَانَ يُرْجَى نِشَابُها

وكُنْتُ وإشْرَافي عليهم وما أَرَى

لِنَفْسِي إذا هُمْ في فُؤَادِي لِبَابُها

كَرَاكِزِ أَرْمَاحٍ تَجَزَّعْنَ بَعْدَما

أُقِيمَتْ صَوَانِيْهَا وسُنّتْ حِرَابُهَا

إذا ذَكَرتْ عَينِي الَّذينَ هُمُ لَها

قذَىً هِيجَ منهـا للبُكاءِ انْسِكَابُها

بَنِي الأَرْضِ قد كانوا بَنِيَّ فعَزَّنِي

عَلَيْهم ،لآجالِ المَنايَا كِتَابُها

ولوْلَا الذي للأَرْضِ ما ذَهَبَتْ بِهِمْ

ولمّا يُفَلَّلْ بالسُّيوفِ حِرَابُها

وَكَأنْ أَصَابَتْ مُؤْمِنًا بِمُصِيبةٍ

علَى الله عُقْبَاهَا ، ومنه ثَوَابُها

هَجَرْنا بيوتًا، أَنْ تُزارَ وَأَهْلَهَا

عَزِيزٌ علينَا ، يا نَوارُ ، اجْتِنَابُها

ودَاعٍ علَى الله ، لو مِتُّ قَدْ رَأَى

بِدَعْوَتِهِ ما يتّقِي لو يُجَابُها

ومِن مُتَمَنِّن أَنْ أَمُوتَ وَقَدْ بَنَتْ

حَيَاتِي لهُ شَمًّا عِظَامًا قِبَابُها

وَخُنْسٌ تَسوقُ السَّخْلَ كُلَّ عَشِيَةٍ

بِدَاويَّةٍ غَبْرَاءَ درْمٍ جدَابُها

فَلَا تَحْسَبَا أَنِّي تَضَعْضَعَ جَانِبِي

ولا أَنَّ نَارَ الحَرْبِ يَخْبُو شِهَابُها

فلا ينكر على قارئ النص تلك العجرفة " وكنت بهم كالليث "،" أبي ضارعات " ، "كراكز أرماح " التي لا تليق بموقف التأبين ومقتضياته الحزينة ، والتي دفعته لأن يلقي بتبعات الموت كلها على شخصِه مستندًا إلى سطوع صورة الحيوان في أسد العرين الذي أسقط عليه ذاتَه ثم في شذرات بيئته الاجتماعية (صورة غارز الرماح) / صانع القوة التي لا يُغفل عنها في المشهد ؛ إذ يحيل الأمرَ إلى ماديةٍ جامدة في الكون تتمثل فيه غاية قوته / الجبل لتضحي دفقة الرثاء قولة فخر،

وتضحي الطبيعة هي مَن تبكي فلذاتِ كبده بعدما انصرف هو إلى نفسه قضيتِه الأولى تحمل غلظة الكون وحدّة البيئة الاجتماعية التي هو منها وظلالها " وما زلت أرمي الحرب .. " ، " .. تركتها كسر الجناح ما تدف عقابها " ، " إذا ما امتراها الحالبون عصبتها .. " ، وكأنه يعاند الموت بقوته.

ثم انظرْ إلى هجائيّته التي تمثّل اطِّرادًا في شِعره حين يصب جامّ غضبِه على مهجوّه سريعًا بتبعية إنسانية (خيانة استقاها من الحيوان)/ الذئب الذي يبدو أنه سارَ في رفقة صورة الفرزدق بغزارة ، ولعله أسقط هذه الخيانةَ على مهجوّه كنوع من الازدراء لينتقل بدءًا ومنتهى إلى نفسه التي تؤرقه دائمًا لتكون هي الأوفر والأبقى والأكثر ذِكرًا، حتى وإنْ كان يهجو ؛ فيستحيل الهجاء تمدّحًا بذاته القَبَلية التي تعني له بطبيعة الحال البرهانَ على وجوده لا يفارقها ولا تفارقه في ميميته( ):

وَقائِلَةٍ، وَالدّمْعُ يَحْدُرُ كُحْلَها،

لَبِئسَ المَدى أجرَى إليه ابنُ ضَمْضَمِ

غَزَا من أُصُولِ النّخلِ حتَّى إذا انْتَهَى

بكِنْهِلَ أدّى رُمْحُهُ شرَّ مَغْنَمِ

فلَوْ كُنتَ صُلبَ العُودِ أوْ ذَا حَفِيظَةٍ

لوَرّيْتَ عَنْ مَوْلاكَ في لَيلِ مُظلمِ

لَجُرْتَ بِهادٍ، أوْ لَقُلْتَ لمُدْلِجٍ

مِنَ القَوْمِ لما يَقضِ نَعْسَتَهُ نَمِ

وَكُنتَ كَذِئْبِ السُّوْءِ لمّا رَأى دَمًا

بصَاحِبِهِ يَوْمًا، أحَالَ علَى الدّمِ

لَقَدْ خُنْتَ قَوْمًا لوْ لجَأتَ إليهِمُ

طَرِيدَ دَمٍ، أوْ حامِلاً ثقلَ مَغْرَمِ

لأَلْفَيْتَ فِيهِمْ مُطعِمًا وَمُطَاعِنًا

وَرَاءَكَ شَزْرًا بِالوَشِيجِ المُقَوَّمِ

فإذا ما ذَمّ هذا الخصمَ بما اقترفَ لم يهجه كواحدٍ إنَّما يهجوه كقوم يواجه بهم ذلك الخصمَ مستقويًا بقوّتهم ومكانةٍ امتلكوها في ذلك الزمان والمكان "خنت قومًا.." بل بذلك العطاء المعنوي الذي تحمله القبيلةُ للبيئة العربية ، وربما يفرض نفسَه في هذه اللحظة تساؤلٌ حتمي وهو: ألم يكن مِن الأجدر بإنسان مبدع يقتدر ماديًا واجتماعيًا كالفرزدق أن يصنع لنفسه مجدًا وقوةً لا أقول يُغنيانِه عن سؤدد قبيلته لكنهما قد يساندانه ويمنحانه فخرًا مِن نوع فردي؟! ، ولا أكاد أجزم بإجابة حين أظن أن الأمرَ يشي هنا بتهتكٍ إنساني لذاتٍ مبدعة تعاني حالةً من أقصى حالات الضعف والانتقاص، كانت سببًا فيه في المقام الأول تلك العلاقة الحيوية الوجودية بالجنس الآخر/ المرأة ، التي يخاطبها هنا ؛ لتؤكد هي نفسها مقدرتَه وعلو شأنِه كنوع من التداوي بالتي كانت هي الداء ولم تزل، ويبدو أن هذه العلاقةَ قد مثّلت حجرَ عثرةٍ في شخصية الرجل ، بل في إبداعه أرهقتها كثيرًا ؛ الأمر الذي جعل " .. الغزل عنده غزلًا ماديًا حسّيًا فيه غلاظة ومجون ، وهذا المجون ظاهر في الألفاظ والمعاني والعاطفة الخَشِنة .. " ( ) التي نزع فيها إلى الأنثى.

لم يفتر الفرزدقُ إذن مِن هذا التغطرس الواهم بذاته ومقوّماتها التي عادةً ما تعود إلى منبتها / القبيلة متوحّدًا مع الكون بكل مستوياته ؛ ففي هذه المرة ينصهر معه في أفلاكه ليكون هو نجمًا وليس شبيهًا بالنجم يمتلك قوةً متناقضة تهدي وتضلّ في آنٍ واحد " عُذّبت به قرى" مبارزًا بهذه القوة المتفرّدة خصمه/ ناقة الشؤم والموت والعذاب الذي صبَّ على قوم نبي الله صالح ؛ إذ يعود المبدع هنا ، لأصداء مرجعية بيئتِه وثقافته ليتناصّ معها وبها لعلَّه يجمع قوةَ الماضي والحاضر وماديةَ الكونِ ومتجرداته ليؤكد وجودًا رفيعَ القدر لذاتِه هو في الحقيقة مجرد التجاجٍ بما تعانيه بل بما " لا تريد الاعتراف به إلا عن طريق ذلك الإسقاط الحيّ على الخارج " ( ) ؛ الأمر الذي تراه شائعًا في شعره ، ويقول في هجائه للطِّرِمَّاح( ) :

نهَزْتَ بِدَلْوٍ يَملأُ الأَرْضَ نِصْفُهَا،

وَخَيرُ دِلاءِ المُسْتَقِينَ سَجِيلُهَا

عَلى نَبَطٍ من أهلِ حَوْرَانَ أصْبَحتْ

مُوَشَّمَةَ الأيْدِي، لَئِيمًا فُلُولُهَا

وَإِنّي أنَا النّجْمُ الّذِي عُذِّبَتْ بِهِ

قُرَى أُمَّةٍ بَادَتْ وَبَادَ نَخِيلُهَا

وَكانَ الطِّرِمَّاحُ الأحَيمقُ إذْ عَوَى،

كَبَكْرِ ثَمُودٍ حِينَ حَنّ فَصِيلُهَا

فهي عودةٌ أخرى لتلك العلاقة الجدلية بالحيوان المفترس والتي تعبِّر تعبيرًا دقيقًا وعميقًا عن نفسيةٍ نكِدةٍ متأزمة لا يصدق عليها جوهرًا ما تتمثله مظهرًا لتخفي ما وراءه من همّ ظل يكابده قرابة مائة عام ، إلى الحد الذي تظن فيه أنه رأى فيه الحبيبة الرجاء الذي انقطع من إناث الإنسانية كلها ؛ إذ أنه كمبدع " يعيد تسمية الأشياء والحالات كي يجعلنا نتعرف عليها من جديد ويخلع عنها ما ألفناه من أوصاف كي يكسوها مرة أخرى فتتجلى أمامَنا "( ) بغيرية نظرته، كقوله( ):

وَأطْلَسَ عَسّالٍ، وَما كانَ صَاحبًا،

دَعَوْتُ بِنَارِي مَوْهِنًا فَأتَاني

فَلَمّا دَنَا قُلتُ: ادْنُ دونَكَ، إنّني

وَإيّاكَ في زَادِي لمُشْتَرِكَانِ

فَقُلْتُ لَهُ لمّا تَكَشّرَ ضَاحِكًا،

وَقَائِمُ سَيْفي مِنْ يَدِي بمَكَانِ

تَعَشّ فَإنْ وَاثَقْتَنِي لا تَخُونَني،

نَكُنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطَحبانِ

وَأنتَ امرُؤٌ، يا ذِئبُ، وَالغَدْرُ كُنتُما

أُخَيَّيْنِ، كَانَا أُرْضِعَا بِلِبَانِ

وَلَوْ غَيْرَنَا نَبّهَت تَلتَمِسُ القِرَى

أتَاكَ بِسَهْمٍ أوْ شَبَاةِ سِنَانِ

وَكُلُّ رَفِيقَيْ كلِّ رَحْلٍ، وَإن هُما

تَعاطَى القَنَا قَوْماهُما، أخَوَانِ

ففي حواره مع مَن اصطَحَبه في إنسانيته ، وهو الذئب الذي انتقاه صاحبًا على غير عادة بنى البشر، رغم " أن العرب لا تألف الذئب على نحو ما هو معروف من أمثالهم وأشعارهم " ( )، لكنها علاقةٌ جديدة بلورها حِسّ الشَّاعر البيئي وقدرتُه على الابتكار في علاقة مكونات الطبيعة بعضها ببعض، وتفاعله معها خارجيًا وداخليًا متحسّسًا في رفقة هذا الحيوان ما يرقى عن صحبة الإنسان، حين شبهه بحاله في وحدتهما ورحيلهما الدائم على إثر الأحبة " وما منهما إلا تولَّى بشقة " ، بيْدَ أنَّه لم يتخلَّ عن حذرٍ وحيطة تستشعر فيهما نزعتَه الماديّة التي لم تسمح له بالتماهي التام مع الطبيعة وترك الزمام لعاطفته التي سارت نحوها ، بل تراه يكبح جماحها بهذا الحذر الواعي ( ) " وقائم سيفي من يدي بمكان " ، لولا أن " أفاض عليه شيئًا من الرقة الوجدانية " ( ) غير المعهودة عنده إلا في ذلك النذر القليل

حين يكشف النقاب قليلًا عن علاقته بالمرأة رغم ما أحاطها به من زيفٍ كان يقصده ، تراه في مقدّمة مدحيّته لهشام بن عبد الملك، الأمرُ الذي يؤكد القولَ بأن مثل الفرزدق مبدعًا يتبنّى في شِعره آهةً شعرية لا يخلو منها مبدع مهما بلغت غلظتُه وغطرستُه باح بها أو لم يبُح تظل سطوتُها منثورةً في جلّ شعره كيفما جاء الغرض الشكلي فإنه يظل معينًا لتلك الآهة يقول فيها ( ) :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنّا

نَرَى العَرَصَاتِ أوْ أثَرَ الخِيَامِ

فَقَالُوا: إنْ فَعَلْتَ، فَأغْنِ عَنّا

دُمُوعًا غَيْرَ رَاقِيَةِ السِّجَامِ

فكَيْفَ إذا رأيتُ دِيَارَ قَوْمي

وَجِيرَانٍ لَنَا، كَانُوا، كِرَامِ

أُكَفْكِفُ عَبْرَةَ العَيْنَيْنِ مِنّي،

وَمَا بَعْدَ المَدَامِعِ مِنْ مَلامِ

سَيُبْلِغُهُنّ وَحْيَ القَوْلِ عَنّي،

وَيُدْخِلُ رَأسَهُ تَحَتْ القِرَامِ

أُسَيّدُ ذُو خُرَيّطَةٍ نَهارًا

مِنَ المُتَلَقِّطي قَرَدَ القُسَامِ

فَقُلْنَ لَهُ نَوَاعِدُهُ الثُّرَيّا،

وَذاكَ عَلَيْهِ مُرْتَفِعُ الزّحَامِ

أقُولُ لِنَاقَتي، لَمّا تَرَامَتْ

بِنَا بيدٌ مُسَرْبَلَةُ القَتَامِ

:

أغِيثي، مَنْ وَرَاءَكِ، مِنْ رَبِيعٍ

أمَامَكِ مُرْسَلٍ بِيَدَيْ هِشَامِ

أقُولُ لها، إذا عَطَفَتْ وَعَضّتْ

بمُورِكَةِ الوِرَاكِ مَعَ الزّمَام:

إلامَ تَلَفّتِينَ، وَأنْتِ تَحْتِي،

وخَيْرُ النّاسِ كُلّهِمُ أمَامي

وفيها يبدأ مدحيتَه بحديث الطَّلل المتهالك متجاوزًا زمانيةً ومكانيةً ليلتقي بذاتٍ تحمل آمالًا قد منعها البوح بها تلك القوة الغاشمة التي عُرِفت عن صاحبها، فيحاول أقرانُه التسريةَ عنه حين تتبدد قواه مع مَشاهد الطبيعة المتهالكة الممزوجة بالذكرى إلى أن ينفجر بالبكاء حين يتمخّض موقف الضعف الإنساني بالبوح إلى المكان ، والبكاءُ هنا ، رسالةُ الوفاء التي يرنو إليها ، ويقدِّمها قربانًا

للطلل القابع حزنًا ؛ " فالطَّلل مكان ذو بعد إنساني وزماني قوام الأول الشَّاعر وحبيبته، وقوام الثاني الماضي وذكرياته، أو هو الشَّاعر وحبيبته في إطار الزمن ، ومِن هذين البُعدين يحفر الطَّللُ عمقَه في نفس الشَّاعر بوصفه الحنايا التي احتضنت وشهدت ذلك العزيزَ الغالي (..) ، فللطَّلل إذن وجودانِ حقيقي موضوعي ، ورمزي ذاتي ، أو قُل وجود خارجي ووجود باطني، والشَّاعر في وقفتِه عليه إنما يقف على نفسه أيضًا ، وينعكس عليها بالتأمل.. " ( ) ، ومِن وجهةٍ ليست بالبعيدة عن الحالة الإنسانية يمثل الطَّلل مشهدَ عبثيةِ البيئة الطبيعية بين ما هو كائن/ العرْصات وآثار الخيام ، وبين ما كان وانقضى / النوار، وتأرجح النفس الأبية القاسية بينهما حتى تَحدث لحظةُ الانفجار " أكفكف عبرة .. " ؛ فيمتثل للحقيقة ويتجاوب معها لحظةَ أن يقرر اللحاقَ عبْرَ وسيلته / الناقة التي يغمرها ـ كعادتهم ـ بحسّه البيئي لمّا يؤنسنها " أقول لناقتي " ، " أغيثي " ؛ حيث يعدها لتكون الطريقَ إلى ما يرجو ، وهو ما يثبت انتفاءَ أيةِ قصدية في جُلَّ شِعره مدحًا وهجاء سوى القصدية إلى ذاته .

كان هذا مشهد بيئة الطَّلل الأول في النص خاتمًا إياه بفخرِه برغبة النساء فيه وتوددهن إليه ؛ الأمرُ الذي يمثل نواةَ نفسِه وكُنهَ أسرارِها الذي يدور جليًا وخفيًا في نصِّه بتبعاته وموبقات الحرمان منه " فقلن له نواعده الثريا .." ، واتبع هذا

الفخرَ بحديثٍ عن المَشيب الذي أصاب منه مقتلًا، وجعل منه أبًا للجميلات بعد أن كان قديمًا محبوبًا لجَدّاتِهن وهو ما لم يكن مطلقًا ، إنماهو حرمان يتحقق كذبًا.

والفرزدقُ حتى وإنْ قرر بعض الكشف أو باغته هو بذلك ؛ فإنَّه لا يترك التوسُّدَ بالمجموع الذي طالما استقوى به، وهذه المرة يحمّله رمزيةَ الحاجة إلى الممدوح / الغاية / المرأة هنا، وإنْ كان الشُّعراء يلقون على الممدوح قصائدهم فيأسرونه كذبًا وبهتانًا، لكنهم يقولونها لغاياتٍ أسمى خالدة خلودَ المعنى وخلودَ النص الحقيقي ، فلا يعدو الأمر كونه إسقاطًا لهمّ نفسِه على همَّ قبيلته ".. ذلك أن ولاءَه الحقيقي كان لها ولعادات جاهلية لم يستطع أن يتخلَّى عنها.. " ( ) ليسيرا معًا هي ظاهرًا وهو باطنًا في رحلة استجداء لعطاء يمثِّل البقاءَ بكل ما يعترى رحلتهما من معوِّقات معنوية تنبئ عنه/ شيبه وضعفه ، ومعوقات ماديّة تنبئ عن القبيلة / البيد التى كان يعتمّ بها اعتمامًا في صباه / مختبر قوَّته ".. تردى الهواجر واعتمامي" ، بكل ما تحوي من مهالكَ وأسبابٍ للموت كثرت ضحاياها من قبله حين حاولوا الوصولَ، وهو بذلك يصبغ تجربتَه النفسيةَ في الخروج من معاناته بصبغة فردية هي سمة دامغة من سمات شخصية الفرزدق " إذا شرك الطريق ترسمته .." "كان نصال يثرب ساقطتها.. من ريش النعام " و "أخشة كل جرشعة وغوج .." و" كأن العيس حين أنخن .. " و" تشير قعاقع الألحى إذا ما.. " و" كأن العنكبوت تبيت تبنى "، في رحلة تتحمّلها ناقته سليلة الفحول( ) / ذاته التي كانت

قديمًا ترتدي الفلواتِ في القائظة ،وتدلجها من الليل حتى النهار دون كلل .. وهيهاتَ أن يعود إلى ما كان/ الشباب.

ثم إن الشَّاعر خلق حوارًا جديدًا مع الناقة يحثُّها فيه على الإسراع في الوصول رغم ضعف القدرة / الشيب عمّا كانت ، لكي تصل إلى تلك الغاية لتنال منها ما يحتاجه هو/ قومه كلٌّ وفقَ ما يأمل ؛ فهو لا يتحدث عن آماله هو فقط ، بل عن آمالهم ومجدهم وفخرهم وإنْ أعلن عن نفسه فإنه سرعان ما يذوب في المجموع مرةً أخرى فيحلَّ فيهم ويحلّون فيه في قوته وفخره بموهبته/ مقدرته ؛ إذ لا يعبّر بالطَّلل والناقة والممدوح عن ذاتيةٍ صِرفة إلا في باطن باطنها، لكنها ـ ظاهرًا ـ هي حُلمٌ للقومية وآمالٌ تخصها قبل أن تخصه ، بيْدَ أنه لا ينفك يسرد للناقة / الوسيلة المغريات في هذا الممدوح عسى ألا تكلّ في مهمتها المقدسة / ذاك الأمل البعيد الذي لن ينالَه إلا بها ، وتظل الناقةُ أيقونتَه التي تخيَّرها من البيئة لتشاركه الحلمَ ، وتكون إحدى خطواتِه المبارَكة نحو ما يبغي حين يفتح الحلمُ إليهم أذرعتَه بالسحاب المفعم الثقيل الذي ينهمر منه مطر أول الربيع " من الوسمي معترك بعاق .. " لترى " في لوحة المطر جملة من الصور الذهنية المجردة واللَّاشعورية تتناسج إضماريًا وخفية لتؤلف شكلًا فنيًا لبرهة المطر.."( ) بما توحيه من آمال نفسه إضافةً إلى رمزيتها " للولادة والتجدد حيث يصبح الرمز حينها قادرًا على قهر الغياب وتحديه " ( ) وهو عينُ ما أراد، وببشرٍ وبركةٍ

تحملهما نِياقُ البيئةِ العربية " فأجوافها ملأى " تحقيقًا لانفراجة الكون أمامه وأمام مقدرته / موهبته عسى أن يكون قد انتوى مداواةَ جرحٍ قديم (الانتقاص الباطني الذي لم يقدر على مداواته سوى الكون حين رضي عنه وفتح له ولموهبته آفاقًا من التحقق والمجد الذاتي) ؛ فما زجْرُه لناقته يستحثّها على البلوغ إلى مجد هي في سبيله إلا زجرٌ لموهبته ليطوعها إلى أن تمدَّه بأسباب مجده ورضاه عن ذاته المبغوضة المُبْعَدَة ، والحيوان هنا ، يحضر حضورًا فاعلًا في صناعة الصورة الرمزية والحدث الإسقاطي ؛ فيمارس مقتدراتِ الإنسان نفسِه ويخالطه الحياةَ فيتحدث ويبكي ويحزن ويتحدى ويتعب ويأمل.. إلخ ، هكذا كانت ذاته / الناقة هي الناجية به بما يطمح إلى الوصول إليه من الإرضاء النفسي الذي طالما بحث عنه فلم يجده إلّا في موهبته بعض الوجود بعدما خذلته كينونتُه المادية / خلقته ، في الوصول إلى تواصلٍ وجودي مع المرأة التي فقدَ فيها ثقتَه بنفسه بعد أن حاول مرارًا إيجادَها بكثرة زيجاته التي باءت جلها بنفورٍ ورفضٍ صارخ في كل مرة ؛ فظمياء والنوار وغيرها مِن الأسماء لا تعبّر إلَّا عن حالة عجزٍ أرادها هو في شِعره قدرةً مزيّفة ، بل صرح في كثير من الأحيان ، بهذا العجز( ):

بِأحْسَنَ مِنْ ظَمْيَاءَ يَوْمَ لَقِيتُها،

وَلا مُزْنَةٌ رَاحَتْ غَمَامَتَها قَصْرَا

وَكَمْ دُونَها مِنْ عاطِفٍ في صَرِيمةٍ

وَأعداءِ قَوْمٍ يَنذُرُونَ دَمي نَذْرَا

إذا أوْعَدُونِي عِنْدَ ظَمْيَاءَ سَاءَهَا

وَعيدي وَقالَتْ: لا تقولوا لَه هُجْرَا

ليعودَ إلى بحثِه الأزلي عن نفسِه المتّزنة في قبيلته تارة ، وفي شِعره وموهبته تارةً أخرى، ولأن " المبدعَ في رأي فرويد إنسانٌ محبَط في الواقع ؛ لأنه يريد الثروةَ والقوةَ والشرف والحب ، لكنه تنقصه الوسائلُ لتحقيق هذه الإشباعات .. "( ) ؛ فالفرزدق إذن كان مبدعًا محبطًا بكل الصور رغم توافر جُلَّ المقومات التي كان من الممكن أن يتحقق بها ؛ لأنه افتقر إلى أهمَّها.

لم يكن الفرزدق في النزوع إلى هذه الرمزية يمثِّل خروجًا عن المألوف، بل كان الأمر سِمةً نفسيةً واجتماعية عند مبدعي هذا العصر، اتفقوا في ذلك المنحى ربما لأسبابٍ خاصة بعصرهم أو بيئتهم الاجتماعية العامة ، أو نتاج أزمةٍ إنسانية

تعرَّضوا لها في عصرهم بظروفه من قبلية وتمزُّع وسعي لإثبات الأفضلية في النسب والقوة والسلطة في الدولة الجديدة ، كما ترى عند الرومانسيين والواقعيين من الشعراء في عصرنا ، وعلى أية حالٍ فلا يمكن لقامات إبداعية مثلهم ـ أو قامات إبداعية للشعر في أي من عصوره اعترف لها العامةُ والخاصة بالموهبة ــ أن تضع جُلَّ شِعرها شعرًا مباشرًا لوصف هذا وذاك من مظاهرَ مرئيةٍ ومحسوسة للطبيعة ، لكنَّها لم تكن إلا رموزًا تحتاج لقراءاتٍ نقدية جادة ومبتكرة لفكِّها وتفسيرها ؛ إذ إن " .. فضيلة الشَّاعر هي في توغُّله بمعاناة الأشياء والتحسس بها ، من دون أن يعتكِفَ عليها ؛ ليتفهمها تفهمًا واعيًا يحيلها إلى حُطام من الأفكار ونُبَذ من الصور الباهتة ، وهو يعبِّر عمَّا يعانيه كنتيجةٍ لبواعِثَ نفسيةٍ غامضة كثيرة التعقيد والتقمص بعضًا ببعض .. " ( ) يوجهها إلى الكون والطبيعة بشكل خاص لتترجمها طرزًا تحمل رموزَ معاناتِه هو، ورغم ذلك لا تستطيع أن تنكر وفقًا لمبدأ الفن للفن قيمة فنية في حالة وصفٍ لبستان أو زهرة أو موقف شعوري ، دون الحاجة إلى إيغال وعمق أدق من الصورة الشعرية الشكلية في حد ذاتِها .

ــ شعر الغزل في العصر الأموي:

شغلت المرأة عقل الرجل وخياله ، وبدلت حاله ، وبلبلت باله منذ أقدم العصور ، لقد استطاعت أن تفتن ألباب الرجال وتأسر قلوبهم ، وتوحي إلى نفوسهم الحب وتغمرهم بالأمل والاستبشار حينا، وبالحيرة والقلق حينا آخر ، فانطلق يصور أحاسيسه ومشاعره تجاهها، وما شعر

الغزل إلا صورة عكسها لنا ذلك التفكير، وأفرغها لنا خيال الشعراء .

والغزل في الشعر العربي قديم ، ولقد كان في العصر الجاهلي موزعا بين الذكريات والبكاء على الديار والتشبب بالأطلال التي هجرها الأحباب، وبين الحديث عن المحبوبة التي ظعنت من هذه الديار كما كان موزعا بين وصف المرأة وصفا عفيفا ، وبين تصويرها تصويرا جسديا مجردا من كل عاطفة سامية .

وقد استمر هذان التياران في العصر الأموي : تيار الغزل العفيف وتيار الغزل الصريح، ومعروف أن الغزل العفيف هو الذي يذكر فيه الشاعر حبه وتعلقه محبوبة واحدة ، يقف عندها ، ويرى فيها المثل الأعلى الذي يحقق له متعة روحية ورضا نفسيا و استقرارا عاطفيا، فهي الأمل المرجو والهدف المنشود والغاية المقصودة، إنها الفتاة التي يقضي عمره ناسكا في محراب عشقها لا يشرك في حبها سواها، يرتل تسابيح الولاء من أجلها يوقد لها الشموع شموع أيامه ويحرق عند قدميها البخور بخور عمره إنها الكأس التي يعيش عمره ظامئا إليها فهي القطرة التي تبل أوامه وتنقع غلته الصادية والري الذي لا يجده في كأس سواها لقد تحولت المرأة في هذا النوع من الغزل إلي كائن مثالي ملائكي متدثر بهالة من الروحانية والقدسية تلك الهالة التي تحول دون مسه أو لمسه وقد عرف هذا النوع من الغزل في عصر بني أمية باسم آخر هو الغزل العذري نسبة إلي قبيلة بني عذرة القضاعية التي كانت تنزل شمالي

الحجاز في وادي القري وقد اشتهرت بكثره عشاقها المولهين المدلهين الصادقين المخلصين في حبهم حتي لو ادي ذلك الحب الي الجنون او افضي الي الموت ويضطح ذلك في اجابه احدهم حينما سئل من من انت

فقال من قوم اذا عشقوا ماتوا

وروي ان عروة بن حزام حينما سئل اصحيح مايروى عنكم من انكم ارق الناس قلوبا فاجاب

ويدور هذا الغزل حول افكار كثيره اهمها الاخلاص امحبوبه واحده والوفاء لها فالشاعر العاشق المحب الوانق لا يحول او يزول ولا يلين عن محبوبته مهما حاول احد ان يثني عنها او ينسيه حبها ولذلك نري عروه بن حزام يقول –

فوالله لا انساك ما هبت الصبا وما اعقبتها في الرياح جنوب

واني لتعروني لذكراكي هزة لا بين جلدي والعظام

ويقول قيس بن ذريح:

يحجبوها او يحل دون وصلها مقالة واش او وعيد امير

فلن يمنعوا عيني من دائم البكاء ولن يذهبوا ما قد اجن ضميري

ويقول:

يقر بعيني قربها ويزيدني بها كلفا من كان عندي يعيبها

وكم قائل قد قال تب فعصيته وتلك لعمري توبة لا اتوبها

وهذا جميل بثينه يعبر عن ذلك الاخلاص بقوله وقد تعرضت له بعض العارضات ليفنيه عن حبها :

أبثين انك قد ملكت فأسجحي وخذي بحظك من كريم واصل

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازل

فأجبتها بالقول بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي

لو كان في قلبي كقدر قلامة فضلا وصلتك أو أتتك رسائلي

ومن هذه الافكار الحديث عما يعانيه الشاعر المحب من لواعج العشق والهوي وتباريح الصبابة والجوي وحرق الحب في باطن الحشي وذلك ما نري في قول قيس بن ذريح :

الي الله اشكوا ما الاقي من الهوي ومن كرب تعتادني وزفير

ومن حرق للحب في باطن الحشي وليل طويل الحزن غير قصير

وكما نري في قول جرير:

اذاقلت ما بي يابثنية قاتلي من الحب قالت : ثابت ويزيد

وان قلت ردي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت: ذاك منك بعيد

فلا انا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد

وقول مجنون ليلي:

فان لهيب النار بين جوانحي اذا ذكرت ليلي احر من الجمر

وكما نري ايضا في قول قيس بن الملوح:

ابيت صريع الحب باك من الهوي ودمعي علي خدي يفيض ويجسم

الا ان دمع الصب عما يجنه وان لم يفه يوما به متكلم

لساني عيي في الهوي وهو ناطق ودمعي فصيح في الهوي وهو اعجم

وكيف يطيق الصب كتمان سره وهل يكتم الوجد امرؤ وهو مغرم

وكما يتجلي أيضا في قول كثير عزة:

الي الله اشكوا لا الي الناس حبها ولا بد من شكوي حبيب يودع

الا تتقين الله في حب عاشق له كبد حري عليك تصدع

وما للهوي والحب بعدك لذة ومات الهوي والحب بعدك أجمع

ومن الافكار التي يدور حولها هذا الغزل : الحديث عن البعد والحرمان والتشبث بالمني والآمال وأمنية القرب والوصال وتعليق النفس بأن حسبها أشياء تجمع بين الأحبة رغم ذلك البعد كما يقول قيس بن ذريح:

ان تك لبني قد اتي دون قربها حجاب منيع ما اليه سبيل

فان نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم انا بالنهار نقيل

وتجمعنا الارض القرار وفوقنا سماء نري فيها النجوم تجول

الي ان يعود الدهر سلما وتنقضي ترات بغاها عندنا وذحول

وتتضح هذه الفكرة أيضا في قول جميل:

واني لأرضي من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا وبأن لا استطيع وبالمني وبالأمل المرجو وقد خاب آمله

وبالنظرة العجلي وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائل

وفي قوله أيضا:

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولي يابثين يعود

فنغني كما كنا نكون وأنتم صديق واذا ما تبذلين زهيد

ومن تلك الامنيات نتيجة البعد والحرمان وان لو ظل الحبيبان صغيرين لم يكبرا بعد ليلتقيا دائما وهذا ما يظهر في قول مجنون ليلي:

تعلقت ليلي وهي غر صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعي البهم ياليت أننا الي اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وفي تضاعيف هذا الغزل يبث الشاعر ولهه الذي هد كيانه وزلزل أركانه هذا الواله الذي يصل به الي حد المرض والضني والنحول والذبول او يصل الي حد يجعلنا نشك في ايمانه ولعروة وابن الملوح أبيات في هذا المعني يقول عروة:

تحملت من عفراء ماليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

كأن قطاة علقت بجناحها علي كبدي من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف النجد ان هما شفياني

وما شفيا الداء الذي بي كله ولا ذخرا نصحا ولا الواني

فقال شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

فويلي علي عفراء ويلا كأنه علي الصدر والأحشاء حد سنان

ويقول مجنون لليلي:

تذكرت ليلي والسنين الخواليا وأيام لا نخشي علي اللهو ناهيا

اعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرا لا اعد الليواليا

وانت التي ان شئت نغصت عيشتي وان شئت بعد الله انعمت باليا

اراني اذا صليت يممت نحوها بوجهي وان كان المصلي ورائيا

وما بي اشراق ولن حبها كعود الشجي اعيا الطبيب المداويا

اصلي فما ادري اذا ما ذكرتها اثنتين صليت الضحي ام ثمانيا

اذا الحب اضناني دعوا لي طبيبهم فيا عجبا هذا الطبيب المداويا

وقالوا به داء قد اعي دواؤه وقد علمت نفسي مكان شفائيا

واما قيس لبني فأنه يقول:

رمتني لبيني في الفؤاد بسهمها وسهم لبيني للفؤاد صيود

وقائلة قد مات او هو ميت وللنفس مني ان تفيض رصيد

اعالج من نفسي بقايا حشاشة علي رمق والعائدات تعود

والحديث عن الظنون والأوهام والهواجس والوساوس والواشين لا يخلوا من هذا النوع من الغزل وذلك امر بدهي فالمحب دائما يحدوه الامل والرجاء ويحيط ب اليأس والحزن والخوف ويلازمه الواشون الحاقدون وفي ذلك يقول قيس لبني:

وكنا جميعا قبل ان يظر الهوي بأنعم حالي غبطة وسرور

فما برح الواشون حتي بدت لهم بطون الهوي مقلوبة بظهور

لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنما الدنيا متاع الغرور

ويقول كثير عزة:

وخبره الواشون اني صرمتها وحملها غيظا علي المحمل

وقول جميل بثيني :

نصد اذا ما الناس اكثروا علينا وتجري بالصفاء الرسائل

فان غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والتراسل

وفي هذا الغزل يظهر لنا محور اخر من محاوره وهو الحديث عن العفة والطهر اذ لا سلطان فيه لشهوات الحس ونوازع الجسد ونزوات الجنس ان عطر النقاء والعفاف يفوح من هذا الغزل وان اسير الفضيلة والصفاء ليضوع من خلاله رغم ما يحدث بين العاشقين من خلوات وسمر وهذا قيس بن ذريح يصور ذلك قائلا:

تطوق اليك النفس ثم اردها حياء ومثلي بحياء حقيق

اذود سوام النفس عنك وماله علي احد الا عليك طريق

ويقول جميل بثينية:

لا والذي تسجد الجباه له مالي بما دون ثوبها خبر

ولا بفيها ولا هممت به ما كان الا الحديث والنظر

ويقول:

وكان التفرق عند الصباح عن مثل رائحة العنبر

خليلان لم يقربا ريبا ولم يستخفا الي منكر

ويجب ان نسجل هنا عدة ملاحظات ونحد بصدد الحديث عن هذا الغزل العفيف أهمها ما يأتي

1.التشاب بين قصص هؤلاء العشاق العذريين فلقد عاشوا في بيئات متشابة وعاشوا حياة متشابهة تحكمها ظروف وتقاليد متشابهة

2.لم يكن هذا النوع من الغزل من خلق العصر الأموي بل وجد منذ العصر الجاهلي كما ذكرنا ذلك من قبل ولكن الحياة الاموية هي التي هيأت له وكانت سبب في ابتعاثه

3.دخل بعض الاساطير هذه القصص ولكن لم تكن اسطورية صرفة ولم تكن قصصا خيالية خالصة من صنيع القصص ونسج الرواة

وان كنا نشك في صحة كل ما وصل الينا من ابيات غزالية وفي نسبتها الي قائليها لان قصص هؤلاء العشاق كانت في فترة من الفترات تلبية لحاجات السمر والمتع وطلبا للاغراء والاعجاب والاستثارة لشوق السامعين حتي لقد غدت اخبارها لونا شعبيا عاما ولعل شعبيتها هي التي اكثرت من القصص حولها

4.لم يكن هذا الغزل مقصورا علي بني عذرا فهو نبتة صحراوية اصيلة رعتها البادية وسقتها الصحراء وهيأته لها الاسباب بما فيها من سكون وصمت في لياليها المقمرة الشاحبة واما بنوا عذرا فقد عرفوا به لان حياتهم لم تكن قاسية ولا كان فيها هذا الجدب المهلك وانما كان فيها خصب ونماء هيا لشئ من الفراغ كما هيا لشئ من الاستقرار فليس فيها منازعات علي المراعي وكانما قد فرغوا للتعبير عن الام النفس اذاء هذا الحب وكانهم فرغوا لانفسهم او هيأت لهم حياتهم ان يفرغوا لانفسهم فأخذوا يغنونها هذا الدرب من الشعر الوجداني بالاضافة الي ما عرفوا به من رقة المشاعر ودقة الاحاسيس

5. طبع هذا الغزل بطوابع اسلامية فلقد فرض الاسلام علي الناس في بيئة البادية ان يغضوا ابصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكون المحرمات ولذلك نجد في هذا النوع من الغزل الطهر والبراءة والتسامي كما نجد في الحزن الصادر عن نفس ملتاعة تخشي

الله وتخافه ويري البعض ان الاسلام كان من اهم الاسباب التي ادت الي وجود هذه الظاهرة فلقد طهر النفوس وبرأها من كل إثم وكان له أثر بعيد في سيطرة هذا الجيل علي غرائزه واستمساكه قدر الطالقة بالعفة والتقوي

6.من اهم اساب ظهور هذا اللون من الغزل التقاليد الاجتماعية وخاصا وضع المرأة الاجتماعية ونظرة الرجل اليها فقد ظلت المرأة في هذا المجتمع خاضعة لنفس التقاليد

الصرمة التي كانت مفروضة عليها منذ العصر الجاهلي تقاليد المنعة والحجاب والرقابة والحراسة

7.مما ساعد علي ظهور هذا الفن في بيئة البادية ان شبابها لم يكن امامهم الا فتيات القبائل او بنات العم المحجبات الممنوعات من كل ما يتمتعن به من حصانة وكل ما يحيط به من قداسة

8.مما ادي الي ظهور هذا الفن في هذه البيئة انها عاشت حياة اقتصادية فقيرة وظلت تعاني من شظف العيش وضنك الحياة كما ان مواقف السياسة الاموية منها كان مغايرة لموقفها من بيئة الحجاز فلم تكن الدولة الاموية تخشي علي نفسها من هذه البيئة ومن ثم فلم تظهر للطبقات المترفة بل ظل الحرمان هو السمة الغالبة علي المجتمع البدوي وظل الكبت هو العنصر الكامل في اعماقه

9.كان هذا النوع من الغزل أشبه بمتنفس يخفف عن شباب البادية قساوة الأيام والحرمان وقد وجدوا فيه نوعا من التعويض عمن حرموا من وسائل اللهو دون المساس بتعاليم الاسلام وهذا ما يمكن ان نسميه بالتفسير النفسي لهذه الظاهرة وعلي الجانب الاخر من هذا الغزل وقف الغزل الحثي الصريح الذي يفتن فيه الشاعر ووصف المرأة من حيث انها انثي تشبع الجوع الجنسي وتحقق له المتع واللهو واللذة وترضي الحث ومن حيث انها تشبع له غرائزه ونزواته ومن حيث انها فتنة طاغية تبهر الرجل وتفتنه وتأثره بما تملك من جمال ودلال وان في هذا النوع من الغزل وسيلة لا غاية والشاعر هنا لا يقف عند واحدة بعينها بل هو كالفراشة الحائمة الهائمة التي تتنقل من فنن

إلى فنن ومن زهرة إلى زهرة فريثما يمتص رحيق زهرة فتذبل إذا به يبحث عن زهرة أخري

إن الشاعر هنا يدعي الحب وهو كاذب لعوب ولوب والمرأة عنده غراء فرعاء مصقول عوارضها ذات خد أسيل وردف ثقيل وشعر طويل وعيون حوراء،

وأهداب متكسرة وطفاء والحق أن الشعراء العرب قد وضعوا في وصف المرأة مقاييس جمالية يبغونها ويطلبون تحقيقها ولذا نري علي سبيل المثال جريرا يتحدث عن العيون الحوراء فيقول:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وخير من يضرب لنا المثل في عدم الوقوف عند واحدة بعينها عمر بن أبي ربيعة الذي يقول في ثلاث أخوات شغلن به :

قالت الكبري: أتعرفن الفتي قالت الوسطى : نعم هذا عمر

قالت الصغري وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

وأخبار ابن أبي ربيعة كثيرة عن صواحبه اللاتي بلغن أكثر من سبع

وثلاثين صاحبة سمي كل وحداة باسمها عدا اللواتي لم يسمهن ومن تلك الصواحب (هند ، ونعم وزينب والثريا والرباب وغيرهن) وقد استطاع عمر بن أبي ربيعة أن يقلب آية الغزل في الشعر العربي فبعد أن كان الشاعر هو المحب اللاهث وراء محبويته جعل ابن أبي ربيعة النساء هن اللواتي يلهثن وراءه ويطلبنه، وهذا ما يتضح في قوله :

وكن إذا ابصرنني أو سمعنني سعين فرقعن الكوى بالمحاجر"

والحق أن ليس في هذا النوع من الغزل عفة أو طهارة إنما هي المتع

الحسية والغرائز الجنسية ، فالوجوه سافرة والنقاب مكشوف بلا أدنى حياء أو خجل وفي ذلك يقول العرجي :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرئ المغفلا

والمرأة لدى الشاعر هنا عبارة عن عيون وخدود وقدود وجيد ووجنات وبنان رخص مخضب وجلد ناعم بض أملس فالشاعر مولع بالجمال الجسدي متتبع للحسن الأنثوي كلما أبصره كلما يقول ابن أبي ربيعة:

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لاحظ لي فيه إلا لذة النظر(

ويقول واصفا هندا مرة:

غادة يفتر عن أشنبها حين تجلوه أقاح أو برد

ولها عينان في طرفيهما حور و الجيد غيد(

ويصفها الأحوص جملة فيقول:

مهفهفة الأعلى وأسفل خلقها جرى لحمه من دون أن يتخددا

كان ذكي المسك منها وقد بدت وريح الخزامى عرفه ينفح الندا(

فهي في نظره في غاية من الرشاقة والأناقة ، ممشوقة القد والقوام ،مكتملة الحسن ، وكان قد تحققت فيها كل مقاييس الجمال الأنثوي ومهما يكن من أمر فإن الشاعر من هذا النوع من الغزل يحس أنه اجترف أثاما واقترف ذنوبا وذلك ما يظهر في قول ابن أبي ربيعة:

يقصد الناس للطواف احتسابا وذنوبي مجموعة في الطوافه(

ويجب أن نسجل هنا أن هذا الضرب من الغزل قد نما نموا واسعا في المدينة ومكة وساهمت فيه ظروف عديدة منها

١ -تحضر المرأة في هذه البيئة تحضرا عظيما فلقد بنيت لها القصور وملئت بالجواري من الأجنبيات اللواتي حملن معهن عادات وأخلاقيات مغايرة للعادات والأخلاقيات العربية

٢ - الحرية التي أخذت المرأة منها . في هذه البيئة . بقسط وافر فلقد اختلطت بالشباب مع المحافظة على كرامتها وشعورها بمركزها الاجتماعي الجديد.

٣ -كثرة الأموال التي صبت في حجور أهل مكة والمدينة أدت إلى وجود طبقة من الشباب كانوا فارغين من عمل فليس هناك ما يشغلهم " ومن ثم أخذوا يبحثون عن وسيلة من وسائل التسلية واللهو ليقطعوا بها وقت فراغهم فكان شعر الغزل إحدى هذه الوسائل

٤ -مجالس اللهو والطرب والغناء التي وجدت نتيجة الفراغ الذي عاشته طبقة كبيرة من الشباب ، وفي هذه المجالس راح الشعراء يتغزلون ويختلطون بالمغنيات ويصفون المفاتن الحسية ويقدمون مادة شعرية جاهزة للغناء فلقد تطلبت هذه المجالس مددا دائما من شعر الحب "وكان على الشعراء أن يقدموا هذه المادة الفنية كلما طلب إليهم ذلك.(

٥ -شعور المرأة العربية بشخصيتها وأنها فتاة الفاتحين العظام أدى بها إلى الأخذ بقسط كبير من الحرية فراحت تختلط بالشباب.

٦ -أذواق السامعين المتحضرين ، تلك الأذواق التي احتاجت إلى ما يرضيها من غناء لاه عابث تردده وتحس أنها تستمتع به.

٧ -انتقال الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام أدى إلى تفرغ المترفين لحياة من الفراغ لا رقابة عليها بل أدى إلى التشجيع على حياة المجون والبطالة لأن أصحاب الدولة كانوا يخشون من أبناء هذه المنطقة لو انصرفوا إلى حياة الجد والطموح إذ لا أمان للدولة في جدهم وطموحهم .

إنها الحياة المترفة والأموال المتدفقة والجواري والرقيق وما حملوا معهم من عـادات مغايرة وإنها الحرية والفراغ والتعطل وخوف الدولة من أبناء هذه المنطقة والتحضر الذي أصاب هذه البيئة وموجة الغناء والعبث .

هي أهم العوامل التي أدت إلى انتشار هذا اللون من الشعر بيئة الحجاز

ابن قيس الرقيات.

اسمه ولقبه ونسبه ومولده :

هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، أحد بني عامر بن لؤي وقد

لقب بالرقيات إما لعدة زوجات أو جدات أو حبيبات له كانت أسماؤهن كلهن رقية، وقد رجح كثير من الرواة والمترجمين له أنه لقب بذلك لتشببه في أكثر من واحدة اسمها رقية وهذا ما ذهب إليه ابن قتيبة وأبو الفرج الأصفهاني، وينتهي نسبه إلى قريش من جهة أبيه، وهو أيضا قرشي من جهة أمه، ولكنه لم يكن من عشيرة ثرية ذات شأن فلقد كان من قريش الظواهر الذين كانوا يعيشون خارج مكة ولكنها كانت عشيرة معروفة بالبأس والشجاعة والقوة.

وأما أمه فهي قتيلة بنت وهب بن عبدالله وينتهي نسبها إلى عبد

مناة بن كنانة، وقد ولد بمكة المكرمة وهذا ما يتفق عليه الرواة

لكنهم يختلفون كثيرا حول سنة مولده.

وإن كنا نرجح أنه ولد في أوائل خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي

الله عنه في العقد الثالث من القرن الأول الهجري) على حسب رواية

ـ الأصفهاني:

ـ مذهبة السياسي :

أكثر من يعتقد البعض أن الشاعر كان زبيري الهوى ، ينتصر للزبيريين ويدافع عنهم، ويستدلون على ذلك بمدائحه التي توجه بها إلى مصعب بن الزبير .

والحق أن الشاعر لم يكن كذلك فشعره يخلو من الدعوة إلى

الزبيريين والدفاع عن رأيهم وقضيتهم إذ لم تشعنه قضية الحزب الزبيري انشغاله بقريش ووحدتها ، ولذلك نرى كے مدائحه لمصعب

حزنه على قريش ، وما أصابها من ضعف وتمزق وضياع كما يشهد علي

ذلك قوله :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في ملك قريش وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء

أن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

لقد كان الشاعر دائما منتصرا لقريش فالقضية عنده ليست قضية

خاصة أو قضية حزب معين إنما هي قضية عامة وهي حبه لقريش وأمله في أن تظل باقية متحدة شامخة ، وهذا ما يفسر لنا كرهه لبني أمية حينما كان متصلا بالزبيريين لأنه كان يرى أن الأمويين قد مزقوا وحدة قريش بما أثاروا من حروب وما أحدثوا من منازعات .

لقد كان السبب في مديحه الزبيريين هو مبدأ الدعوة عندهم إلى أن

تكون الخلافة في قريش ومن ثم نراه باكيا على ملك قريش إذ يقول:

عين فابكي على قريش وهل ير جع ما فات - إن بكيت - البكاء

معشر حتفهم سيوف بني العلم ات يخشون أن يضيع اللواء

فالشاعر إذن قرشي الهوى والمذهب ، يرى أن قريشا أحق بالسيادة

والرياسة بما تملك من ميراث ديني وتاريخي وقبلي فقريش هي عمود الخلافة ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطا لا يرتفع بعده

ثم جذبته دعوة الزبيريين إلى تلك القضية جذبا ، ولذلك كـان مصـعبي الهـوى ، فلقـد أحب مصعبا وأعجب بشجاعته ، ورأى فيه فتى قرشيا ينتصر لقومه - قريش - ويثأر لها من أعدائها ومن كل من يحاول أن يزيل ملكها أو يزلزل كيانها . ومما يدلنا علـى قرشيته تحوله إلى مديح الأمويين بعد اندثار الحزب الزبيري لأنه رأى أن السلطة قد استقرت فيهم وأن سلطان قريش معهم ، فهم أحد بيوت قريش.

والحق أن ابن قيس الرقيات لم يكن شاعرا للزبيريين ولا شاعرا

للأمويين على الرغم من اتصاله بهؤلاء وهؤلاء وإنمـا كـان شـاعرا لقـريش يعشـقها ويدافع عنها ويدعو إلى سيادتها ويتمنى لها الظهور دائما كما

يتمنى لها القوة والوحدة ، لقد كان في الحق - أوسع أفقا وأبعد نظرا

من تلك الأحزاب التي قامت في عصره وتصارعت في زمنه.

شعره : نظم ابن قيس الرقيات في موضوعات عديدة وأغراض كثيرة

من الشعر أهمها ما يأتي:

١ (الغزل:

لابن قيس الرقيات قصائد ومقطوعات في الغزل كثيـرة ، وقـد قسـمالنقاد غزلـه إلـي مرحلتين أو طورين هما

أ (الطور الأول):

:هو ذلـك النـوع مـن الغـزل الـذي نظمـه أثنـاء وجـوده بمكـة والمدينـة قبـل اتصـاله بالسياسة:

ب (الطور الثاني) :

هوما نظمه من غزل في مقدمات قصائده بعد اتصاله بالسياسة

ويلاحظ علي النوع الأول كثرة المقطوعات الخالصة في الغزل والتي لم تمتزج بمديح أو هجاء وكان هذا نتيجة اتصاله بحياة الترف والغناء والمغنيين والمغنيات في مكة والمدينة وما تطلبته موجة الغناء من مقطوعات قصيرة يسهل تلحينها ،

ويلاحظ أيضا أن كثيرا من هذه المقطوعات كان مطبوعا " بطوابع الغناء التي عاصرته كما أنها تمتاز " بحلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات كما تمتاز بالنقاء والصفاء وعذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان.

كما يلاحظ أيضا أن كثيرا من هذه المقطوعات كان فيمن تسمى رقية وسلمة ، والحق أن ما نظمه في رقية من شعر وعشق وهيام شديد كما يصور ما كان يطرأ على هذا الغرام من تغيرات وعقبات ، والحقيقة أنه قد أخلص أيما إخلاص في حبه رقية ابنة عمه عبدالواحد ومحض لها العشق وملأ باسمها أرجاء الحجاز في شعر

رقيق عذب أخاذ مملوء بصدق العاطفة الجياشة دال على وفاء شديد لها وذلك كما نرى في قوله:

رقية تيمت قلبي فواكبدي من الحب

وقالوا داؤه طب الا بل حبها طبي

تهاني إخوتي عنها وما للقلب من ذنب

ويلاحظ على شعره في هذا الجانب أيضا تطور في المعنى فلقد عبر

فيه عن دلال المرأة المنعمة المترفة وعبر عن نفسيتها وما أصابت من التحضر والرقي وذلك كما يظهر في قوله:

حبذا الدلال والغنج والتي في طرفها دعج

التي إن حدثت كذبت والتي في وصلها خلج

تلك إن جادت بنائلها فابن قيس قلبه ثلج

ومما يلاحظ أيضا على هذا النوع تطور في الأسلوب والوزن فاللغة

عنده سهلة بسيطة والألفاظ قريبة مألوفة ، بعيدة عن الغرابة والتقعر والالتواء كما أنه استخدم الأوزان الخفيفة كثيرا كما ذكرنا من قبل

- وهذه الأوزان تلائم حاجة المغنين والمغنيات ومجتمع اللهو ومجامع السمر والطرب والعبث ، وأخيرا يلاحظ أن كثيرا من القصائد والمقطعات قد استقل بموضوع الغزل .

وأما النوع الثاني : فهو الذي نظمه بعد اتصاله بالسياسة وفيه قل

الغزل الخالص فلقد امتزج النزل عنده بالسياسة.

وهنا نلاحظ عودة الشاعر إلى النظام التقليدي إذ صار الغزل جزءامن القصيدة أو قل مقدمة لها بعد أن كانت القصيدة عنده خالصة للغزل .

والحق أن ابن قيس الرقيات قد استطاع أن يتخذ الغزل هنا في هذا النوع - أداة لشعره السياسي ووسيلة للوصول إلى إعلان آرائه في السياسة والحكم.

ويلاحظ أن هذا النوع عنده قد تميز بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ودقة المشاعر والانفعال والانبهار بالجمال كما يلاحظ أنه قد بثه شيئا من نفثات الألم والحزن وذلك كما نرى في قوله :

عاد له من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنسكب

والله ما إن صبة إلي ولا يعلم بيني وبينها سبب

إلا الذي أورثت كثيرة في ال قلب وللحب سورة عجب

وكما نرى في قوله :

ظننت لتحزننا كثيرة ولقد تكون لنا أميرة

شبت أمام لداتها بيضاء سابغة الغديره

وفي هذا النوع نلاحظ أيضا استخدام الرمز والايحاء وقد كان ذلك نتيجة اتصاله بالسياسة ومما يدلنا على ذلك قوله :

بشر الظبي والغراب بسعدى مرحبا بالذي يقول الغراب

حبذا الريم والوشاحان والقصر الذي لا اله الأسباب

رجل أنت همه حين يمسي خامرته من أجلك الأوصاب

لا أشم الريحان إلا بعيني كرما إنما تشم الكلاب

فهو في البيت الأخير يعرض بعيد الملك بن مروان لأنه كان متغير الفم تخرج منه رائحة كريهة تؤذي من يدنو منه فكان في يده دائما ريحان أو تفاحة أو طيب يشمه

٢ (المديح:

انغمس شاعرنا في السياسة انغماسا واتصل برجالاتها كثيرا مثل عبدالله و بن جعفر القرشي وطلحة بن عبيد الله الخزاعي ومصعب بن الزبير ومثل الأمويين في الشام وعبد العزيز بن مروان بمصر وكان لا يهدف من وراء ذلك إلا العطاء والمال والهبة والنوال وخير شاهد على ذلك همزيته التي قالها في مصعب وهي أطول ما في ديوانه.

وهو في مدائحه يصور ممدوحيه بالكرم والشجاعة والهمة والبسالة والعطاء والسخاء والتواضع والعدل والرحمة والتقوى والحكمة والفصاحة والنسب الكريم والأرومة الأصيلة . يقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهة الظلماء

ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت ولابه كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

ويتضح ذلك أيضا في مديحه عبد العزيز بن مروان حيث يقول :

اثن على الطيب ابن ليلى إذا أثنيت في دينه وفي حسبه

من يصدق الوعد والقتال ويخشي الله في حلمه وفي غضبه

ومن فيض الندي يداه ومن ينته الحمد عند منتهبه

٣ (الرثاء):

فجع ابن قيس الرقيات في بعض أصدقائه وأقاربه وممدوحيه ، ونكب فيهم عدة نكبات فهب ناهضا يرثيهم ويتحسر عليهم ويحزن

متفجعا متألما.

وقد كان في رثائه في غاية الصدق والوفاء وكان يتكئ على إثارة الأحاسيس والمشاعر الحزينة وإهاجة العواطف المكلومة باختيار معان وألفاظ مملوءة باللوعة والحزن والحسرة والأنين والشجن . ومن تلك المراثي التي تفيض حزنا وألما قوله في أقاربه الذين وقعو صرعى معركة الحرة :

ومصرع إخواني الصالحين بالنعف والأعين الساجمة

يتامي يبكون آباءهم ولم يبق دهر لهم سائمة

وأرملة يعتريها النحيب إذا نامت الأعين الناعمه

تبكي رجال بني عمها وإخوتها وحدها قائمه"

ومن مراثيه المفعمة بالحسرة واللوعة قوله الذي يرثي فيه مصعب بن الزبير:

فقلت لمن يخبرني حزينا أتنعي مصعبا وغالتك غول

فإن يهلك فجدكم شقي وعيشكم وامنكم قليل

أغر تفرج الغمرات عنه كأن جبينه سيف صقيل

إذا نزلت به حرب ضروس يهاب الرز منها والصليل

وهنا تلاحظ امتزاج الرثاء عنده بالمدح ، هذا المدح الذي يتخذه وسيلة إلى بث الأحزان والأشجان والتنفيس عن الكربات والنكبات وصولا إلى توضيح عظم النكبة في المرثي.

ـ قصيدة بانت سعاد للصحابي كعب بن زهير رضي الله عنه:

بانَت سُعادُ فَقَلبـي اليَـومَ مَتبـولُ مُتَيَّـمٌ إِثرَهـا لَـم يُجـزَ مَكبـولُ[1]

وَما سُعادُ غَـداةَ البَيـنِ إِذ رَحَلـوا إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحـولُ[2]

هَيفـاءُ مُقبِلَـةً عَجـزاءُ مُـدبِـرَةً لا يُشتَكى قِصَرٌ مِنهـا وَلا طـولُ[3]

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَـت كَأَنَّـهُ مُنهَـلٌ بِـالـراحِ مَعلـولُ[4]

شُجَّت بِذي شَبَمٍ مِـن مـاءِ مَحنِيَـةٍ صافٍ بِأَبطَحَ أَضحى وَهُوَ مَشمـولُ[5]

تَنفي الرِياحُ القَذى عَنُـه وَأَفرَطَـهُ مِن صَوبِ سارِيَةٍ بيـضٍ يَعاليـلُ[6]

أكرم بها خُلّـةً لَـو أَنَّهـا صَدَقَـت موعودَها أَو لَو أَنَّ النُصحَ مَقبـولُ[7]

لَكِنَّها خُلّـةٌ قَـد سيـطَ مِـن دَمِهـا فَجـعٌ وَوَلـعٌ وَإِخـلافٌ وَتَبديـلُ[8]

فَما تَدومُ عَلـى حـالٍ تَكـونُ بِهـا كَمـا تَلَـوَّنُ فـي أَثوابِهـا الغـولُ

وَما تَمَسَّكُ بِالوَصلِ الّـذي زَعَمَـت إِلّا كَمـا تُمسِـكُ المـاءَ الغَرابيـلُ[9]

فَلا يَغُرَّنَكَ ما مَنَّـت وَمـا وَعَـدَت إِنَّ الأَمانِـيَ وَالأَحـلامَ تَضلـيلُ

كَانَت مَواعيدُ عُرقـوبٍ لَهـا مَثَـلاً وَمـا مَواعيـدُها إِلّا الأَباطـيـلُ

بان: فارق ، متبول: يُقال تبلهم الدهر أي أفناهم ، وتبلهم الحب أي أسقمهم وأضناهم. متيّم: يُقال تيّمه الحب أي استعبده وأذله. يُفد: مضارع للفعل فدى الأسير. مكبول: مأسور و مقيّد.[1]

[2] أغنّ: في صوته غنة. غضيض الطرف: غض الطرف أصله ترك التحديق قال تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم".

[3] هيفاء: ضامرة البطن دقيقة الخصر. عجزاء: كبيرة العجيزة (المؤخرة)

[4] تجلو: تكشف عن. العوارض: الأسنان أو الضواحك منها. ظَلَم: ماء الأسنان وبريقها أو رقتها وشدة بياضها. مُنهل: إسم مفعول من نَهَل أي الشرب أولاً. الراح: الخمر. معلول: اسم مفعول من عَلَل أي الشرب ثانياً.

[5]، شبم: شديد البرودة. محنية: منعطف الوادي. أبطح: المسيل الواسع الذي فيه دقاءق الحصى. أضحى: أخذ في الضحى. مشمول: ضربته ريح الشمال. شجت: كُسرت حدتها (خففت)

[6] تنفي: تطرد. سارية: هي السحابة تأتي في الليل ، وهي عكس غادية. بيض يعاليل: هي السحاب ، ويقال جبال عالية ينحدر منها الماء

[7] ويُروى ياويحها خلة ، خُلَّة: بمعنى خلية أو صديقة،

[8] سيط: المبني للمجهول من ساط بمعنى خلط. الوَلْع: الكذب.

[9] وجاء (ولا تمسك بالعهد الذي زعمت) الغرابيل: جمع غربال

أَرجـو وَآمُلُ أن تدنـو مودتـها وَما أخــال لدينـا مـنك تنـويل[1]

أَمسَت سُعـادُ بِـأَرضٍ لا يُبَلِّغُهـا إلّا العِتـاقُ النَجيبـاتُ المَراسـيلُ[2]

وَلَـن يُبَـلِّغهــا إلا عُـذافِـرة لهاعَلى الأَيـنِ إرقـالٌ وَتَبغيـلُ[3]

مِن كُلِّ نَضّاخَةِ الذِفرى إذا عَرِقَـت عُرضَتُها طامِسُ الأَعلامِ مَجهـولُ[4]

تَرمي الغُيوبَ بِعَينَـي مُفـرَدٍ لَهَـقٍ إذا تَوَقَـدَتِ الـحُـزّانُ وَالمـيـلُ[5]

ضَـخـمٌ مُقَلَّـدُهـا فَعَـمٌ مُقَـيَّدُها في خَلقِهاعَـن بَنـاتِ الفَحلِ تَفضيلُ

حَرفٌ أَخوها أَبوهـا مِـن مُهَجَّنَـةٍ وَعَمُّهـا خَالُهـا قَـوداءُ شِملـيـلُ

يَمشي القُـرادُ عَلَيهـا ثُـمَّ يُزلِقُـهُ مِنهـا لَبـانٌ وَأَقـرابٌ زَهالـيـلُ

عَيرانَةٌ قُذِفَت في اللَحمِ عَن عُـرُضٍ مِرفَقُها عَن بَنـاتِ الـزورِ مَفتـولُ

كَأَنَّ مـا فـاتَ عَينَيهـا وَمَذبَحَهـا مِن خَطمِها وَمِن اللَحيَيـنِ بَرطيـلُ

تَمُرُّ مِثلَ عَسيبِ النَخـلِ ذا خُصَـلٍ في غـارِزٍ لَـم تَخَوَّنَـهُ الأَحاليـلُ

قَنـواءُ في حُرَّتَـيها لِلبَصـيرِ بِها عِتقٌ مُبيـنٌ وَفي الخَدَّيـنِ تَسهـيـلُ

تَخدي عَلى يَسَراتٍ وَهـيَ لاحِقَـةٌ ذَوابِـلٌ وَقعُهُـنَّ الأَرضَ تَحلـيـلُ

سُمرُ العُجاياتِ يَترُكنَ الحَصى زِيَماً لَـم يَقِهِـنَّ رُؤوسَ الأُكُـمِ تَنعيـلُ

يَوماً يَظَلُّ بِهِ الحَربـاءُ مُصطَخِمـاً كَـأَنَّ ضاحِيَـهُ بِالنـارِ مَمـلـولُ

---

[1] ويُروى البيت هكذا: أرجو وآمل أن يعجلن في أبد * ومالهن طوال الدهر تعجيل

[2] النجيبات: ج. نجيبة ، أي الكيمة من الخيل، ويُروى النجيَّات: أي السريعات. والعتيق من الإبل والخيل وغيرهما: ارائع ، الأصيل ، الكريم. المراسيل: ج. مرسال ، أي ناقة سريعة

[3] عُذافِرة: الناقة الصلبة العظيمة. الأين: الإعياء والتعب. إرقال: نوع من الخَبَب أي سرعة السير. التبغيل: نوع آخر من المشي مشبه مشي البغال لشدته.

[4] نضّاخة: شديدة النضح. الذفرى: النقرة أو الحفرة خلف أذن الدابة. عرضتها: همتها أو هدفها. طامس: ممحي

[5] الغيوب: ج. غائب أو غيب. مفرد: صفة شائعة للثور الحشي المنفرد عن سربه. لهق: أبيض. الحزاز: ج. حزيز، الأماكن الغليظة الصلبة. الميل: ج. ميلاء، العقدة الضخمة من الرمل

كَأَنَّ أَوبَ ذِراعَيها وَقَد عَرِقَت وَقَد تَلَفَّعَ بِالقورِ العَساقيلُ

وَقالَ لِلقَومِ حاديهِم وَقَد جَعَلَت وُرقُ الجَنادِبِ يَركُضنَ الحَصى قيلوا

شَدَّ النهارُ ذِراعاً عَيطَلٍ نَصَفٍ قامَت فَجاوَبَها نُكدٌ مَثاكيلُ

نَوّاحَةٌ رَخوَةُ الضَبعَين لَيسَ لَها لَمّا نَعى بِكرَها الناعونَ مَعقولُ

تَفري اللِبانَ بِكَفَّيها وَمِدرَعِها مُشَقَّقٌ عَن تَراقيها رَعابيلُ

يَسعى الوُشاةُ بِجَنبَيها وَقَولُهُم إِنَّكَ يَا بنَ أَبي سُلمى لَمَقتولُ

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ لا أُلفِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ

فَقُلتُ خَلّوا طَريقي لا أَبا لَكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ

أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللَهِ أَوعَدَني وَالعَفوُ عِندَ رَسولِ اللَهِ مَأمولُ

مَهلاً هَداكَ الّذي أَعطاكَ نافِلَةَ القُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ

لا تَأخُذَنّي بِأَقوالِ الوُشاةِ وَلَم أُذنِب وَلَو كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ

لَقَد أَقومُ مَقاماً لَو يَقومُ بِهِ أَرى وَأَسمَعُ ما لَو يَسمَعُ الفيلُ

لَظَلَّ يُرعَدُ إِلّا أَن يَكونَ لَهُ مِنَ الرَسولِ بِإِذنِ اللَهِ تَنويلُ

مازِلتُ أَقتَطِعُ البَيداءَ مُدَّرِعاً جُنحَ الظَلامِ وَثَوبُ اللَيلِ مَسبولُ

حَتّى وَضَعتُ يَميني لا أُنازِعُهُ في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قيلُهُ القيلُ

لَذاكَ أَهيَبُ عِندي إِذ أُكَلِّمُهُ وَقيلَ إِنَّكَ مَسبورٌ وَمَسؤولُ

مِن ضَيغَمٍ مِن ضِراءَ الأَسدِ مُخدِرَةً بِبَطنِ عَثَّرَ غيلٌ دونَهُ غيلُ

يَغدو فَيَلحَمُ ضِرغامَين عَيشُهُما لَحمٌ مِنَ القَومِ مَعفورٌ خَراذيلُ

إذا يُساوِرُ قِرناً لا يَحِلُّ لَهُ أَن يَترُكَ القِرنَ إِلّا وَهُوَ مَفلولُ

مِنهُ تَظَلُّ حَميرُ الوَحشِ ضامِرَةً وَلا تُمَشّي بِواديهِ الأَراجيلُ

وَلا يَزالُ بِواديهِ أَخو ثِقَةٍ مُطَرَّحُ البَزِّ وَالدَرسانِ مَأكولُ

إِنَّ الرَسولَ لَسَيفٌ يُستَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللَهِ مَسلولُ

في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم بِبَطنِ مَكَّةَ لَمّا أَسلَموا زولوا

زَالوا فَما زالَ أَنكاسٌ وَلا كُشُفٌ عِندَ اللِقاءِ وَلا ميلٌ مَعازيلُ

شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَبوسُهُمُ مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ

بيضٌ سَوابِغُ قَد شُكَّت لَها حَلَقٌ كَأَنَّها حَلَقُ القَفعاءِ مَجدولُ

يَمشون مَشيَ الجِمالِ الزُهرِ يَعصِمُهُم ضَربٌ إِذا عَرَّدَ السودُ التَنابيلُ

لا يَفرَحونَ إِذا نالَت رِماحُهُمُ قَوماً وَلَيسوا مَجازيعاً إِذا نيلوا

لا يَقَعُ الطَعنُ إِلّا في نُحورِهِمُ ما إِن لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ

ـ من أهم نصوص صدر الإسلام

نص ابن مقبل

أنـاظِرُ الوَصْـلُ أمْ غـادٍ فَمَصْـرومُ ... أمْ كُـلُّ دَيْنِـكَ مِـنْ دَهْمَـاء مَغْـرُومُ

أمْ مَـا تَـذَكَّر مِـنْ دَهْمَـاءَ إذْ طَلَعَـتْ ... نَجْـدَيْ مَرِيـعٍ، وقَـدْ شَـابَ المَقَـادِيمُ

هَلْ عَاشِقٌ (نالَ) مِنْ دَهْمَاءَ حَاجَتَهُ ... فـي الجَاهِلِيَّـةِ قَبْـلَ الـدِّينِ مَرْحُـومُ

بَـيْضُ الأَنُـوقِ بِـرَعْمٍ دُونَ مَسْكَنِهَا ... وبِالأَبَـارِقِ مِـنْ طِلْحَـامَ مَرْكُـومُ

وطَفْلَـةٍ غَبيْـرِ جُبَّـاءٍ، ولا نَصَـفٍ ... مِـنْ سِـرِّ أَمْثَالِهَـا بَـادٍ ومَكْتُـومُ

خَـوْدٌ تَلَـبَّسُ إلبَـابُ الرِّجَـالِ بِهَـا ... مُعْطًـى قَلـيلًا عَلـى بُخْـلٍ، ومَحْـرُومُ

عَانَقْتُهَا، فَانْثَنَتْ طَوْعَ العِنَاقِ، كَمَا ... مَالَـتْ بِشَـارِبِهَا صَـهْبَاءُ خُرْطُـومُ

صَرْفٌ، تَرَقْرَقُ فـي النَّـاجُودِ، ناطِلُهَا ... بالفُلْفُـلِ الجَـوْنِ والرُّمَّـانِ مَخْتُـومُ

يَمُجُّهَـا أَكْلَـفُ الإسْـكَابِ وَافَقَـهُ ... أيْـدِي الهَبَـانِيقِ، بِالمَثْنَـاةِ مَعْكُـومُ

كأَنَّهَـا مَـارِنُ العِـرْنِينَ مُقْتَصَـلٌ ... مِـنَ الظِّبَـاءِ، عَلَيْـهِ الـوَدْعُ مَنْظُـومُ

مُقَلَّـدٌ قُضُـبَ الرَّيْحَـانِ، ذُو جُـدَدٍ، ... فـي جَـوْزِهِ مِـنْ نِجَـارِ الأَدْمِ تَوْسِـيمُ

مِمَّـا تَبَنَّـى عَـذَارَى الحَـيِّ، آنَسَـهُ ... مَسْـحُ الأَكُـفِّ وإلْبَـاسٌ وَتَنْـوِيمُ

مِـنْ بَعْـدِ مَـا نَـزَّ تُزْجِيـهِ مُرَشِّـحَةٌ ... أخلـي تيـاس عليهـا فـالبراعيمُ

لا سَـافِرُ اللَّحْـمِ مَـدْخولٌ ولا هَـبِجٌ ... كَاسي العِظَامِ، لَطِيفُ الكَشْحِ مهضومُ

ولَيْلَـةٍ مثْـلِ لَـوْنِ الفِيـلِ غَيَّرهَـا ... طُمْـسُ الكَوَاكِـبِ والبِيـدُ الـدَّيَامِيمُ

كَلَّفْتُهَـا عَنْـدَلًا فـي مَشْـيِهَا دَفَـقٌ ... تَفْـرِي الفَـرِيَّ إذا امْتَـدَّ البلَاعِـيمُ

فِيهَـا إذا الشَّـرَكُ المَجْهُـولُ أَخْطَـأَهُ ... أُمُّ الأَدِلَّاءِ، واغْبَـرَّ الأيـادِيمُ

مُعَـوَّلٌ، حِـينَ يَسْـتَوْلي بِراكِبِـهِ ... خَـرْقٌ كَـأَنَّ مَطَايـا سَـفْرِهِ هِـيمُ

بَاتَـتْ عَلَـى ثَفِـينٍ لأُمِ مَرَاكِـزُهُ ... جَـافَى بِـهِ مُسْـتَعِدَّاتٌ أَطَـامِيمُ

غَيْرَى عَلَى الشَّجِعَاتِ العُوجِ أَرْجُلُهَا ... إذَا تَفَاضَـلَتِ البُـزْلُ العَلاكِـيمُ

يَهْـوِي لَهَـا بَـيْنَ أَيْـدِيهَا وأَرْجُلِهَـا ... إذَا اشْـفَتَرَّ الحَصَـى حُمْـرٌ مَلاثِـيمُ

رَضْـخَ الإمَـاءِ النَّـوَى رَدَّت نَوَازِيَـهُ ... إذَا اسْـتَدَرَّتْ بِأَيْـدِيهَا المَلادِيـمُ

إنْ يَـنْقُصِ الـدَّهْرِ مِنِّـي فَـالفَتَى للـدَّهْرِ، مِـنْ عُـودِهِ وَافٍ وَمثْلُـومُ
وإنْ يَكُـنْ ذَاكَ مِقْـدَارًا أُصِـبْتُ بِـهِ فَسِـيرَةُ الـدَّهرِ تَعْـوِيجٌ وَتْقـوِيمُ
[مَـا أَطْيَـبَ العَـيْشَ لَـوْ أَنَّ الفَتَـى تَنْبُـو الحَـوادِثُ عَنْـهُ وَهْـوَ مَلْمُـومُ]
لَا يُحْـرِزُ المَـرْءَ أَنْصَـارٌ ورَابِيَـةٌ تَـأْبَى الهَـوَانَ إذَا عُـدَّ الجَـرَاثِيمُ
لَا تَمْنَـعُ المَـرْءَ أَحْجَـاءُ الـبِلَادِ، ولَا تُبْنَـى لَـهُ فـي السَّـمَواتِ السَّـلَالِيمُ
فَقَـدْ أُكَثِّـرُ لِلْمَـوْلَى بِحَاجَتِـهِ، وَقَـدْ أَرُدُّ عَلَيْـهِ وَهْـوَ مَظْلُـومُ
حَتَّـى يَنُـوءَ بِمَـا قَـدَّمْتُ مِـنْ حَسَـن إنَّ المَـوَالِيَ مَحْمُـودٌ وَمَـذْمُومُ

ونص ابن مقبل يفتح ذراعيه للقارئ، ولا يبخل عليه بمضامينه منذ أول وهلة في المواجهة بينهما؛ مقدمًا له مفاتيح القراءة الحرة التي يمكن ألا يتقيد فيها القارئ بشيء سوى كونه قارئًا، ومن منطلق " أن كل عمل أدبي هو مستقل بذاته كما قال برجسون Henri Bergson "( )، وفي النص تستطيع أن تتلمس ذلك الجرح البارز بروزًا موجعًا، والذي يعاني منه الشاعر هنا، وذلك الشرخ العميق في نفسيته وتوازنه في نص يفتتحه بتساؤل مصيري بالنسبة له " أناظر الوصل أم غادٍ فمصروم..؟" وإن أردنا الدقة فهو تساؤل وجودي ينطلق منه المبدع هنا متكئًا على الحيرة التي تمزقه بقوة باحثًا عن جواب هو أقرب وأقدر على معرفته دونما عون من أحد؛ لأنه هو من يدرك جيدًا هل يمكن لمحبوبته تلك (دهماء) أن تفي بوعدها بالوصل وتعود لما كانت عليه، أم أنها أضغاث آمال هي محض سراب أمام مضي الزمن وحركيته الحتمية التي لا يمكن لهما (هو ودهماء) أن ينتصرا عليها " أم كل دينك من دهماء مغروم" ؟! هو وحده من يستطيع الجواب، لكن القارئ أيضًا، يمكنه ذلك إذا ما استطاع الوصول للب النص الذي ينتجه هو، وجوهره الذي يريده هو، وفقًا لما ذهب إليه " إيزر الذي يرى أن الإبداع لكي يكون إبداعًا ذاتيًا يجب أن يكون مدركه (القارئ) له دور مباشر في صنعه"( ).

والشاعر هنا يطلق التساؤل تسريةً، وبوحًا، وتخفيفًا على نفسه من أعبائها الثقيلة بإشراكه للآخر معه ببوح لا يخلو من الترميز والتخفّي، وهو موقن من جواب أحادي الوجهة لتساؤله؛ لأنه الأولى به؛ ولا أدل على هذا من لومه لنفسه في البيت

التالي بهذه السرعة ارتدادًا لحقيقة ما يعرفه جيدًا، فماله يبحث عن سراب، ويأمل في ظل هذه الهيمنة الجلية لبنية الوجود الزمني عودة دهماء(الماضي /المستحيل)، إنه اغتراب يساق إليه سوقًا، ولا يمكن أن نغفل هنا" حديث شيلر Schiller عن علاقة الاغتراب بفكرة الزمن؛ بأن هناك اختلافًا بين وضع الإنسان (في الزمن) وطبيعته الجوهرية الحقة(في الفكرة)، ومهمة الإنسان هي التنسيق بين هذين الجانبين، وإذا تم ذلك فالإنسان الكامن بداخلنا يتحد مع ذاته، ويتطابق وجود الإنسان في الزمن مع وجوده في الفكرة، وهو الأمر الذي لا يحدث إذا تجاوز أحدهما الآخر"( )، إذن ما الذي يحمله على كل هذا التشبث بالسراب/الماضي في كل نصوصه ؟! تساؤل آخر يطلقه هو والقارئ معًا في آن واحد، فها هو يقول باكيًا عن أنسه فيما هو قبل اللحظة الآنية/ ما قد ولّى وانتهى/ قديمه في نصوص أخرى فيقول ( ):

منازلُ ليلى وأترابها

خلا عهدها بين قَوٍّ فَقُنّ

خلا عهدها بعد سُكانها

لما نالها من خَبال وجنّ

ليالي ليلى على غانظٍ

وليلى هوى النفس ما لم تَبِنْ

ونرى ذلك في قوله أيضًا( ):

عرجت فيها أحييها وأسألها

فكدن يبكينني شوقًا ويبكينا

فقلت للقوم: سيروا لا أبالكم

أرى منازل ليلى لا تحيينا

هل ما حمله على هذا التشبث هو الاغتراب والتشرذم الداخلي الذي ظل يعانيه منذ أن فارق دهمائه (ماضيه) إلى حاضر لم يقو على الانخراط فيه، بل لم يقو على أن يصبح منه، فكان جراء ذلك أن يعيش خارجه؛ خارج الزمن تمامًا، وخارج المكان الذي كان يحمله ذلك الزمن أيضًا؟!

والقديم هنا، يطل بكامل صورته في دهماء/ السؤال والجواب، التي هي مرتكز النص ومفتاحه، على الرغم من قوة وواقعية اللحظة الآنية، وتمكنها من الجميع بكل إرهاصاتها التي تنتهي فيها هذه العلاقة القديمة (الماضي) بين الشاعر وحبيبته، كما أنها تفرض الفراق فرضًا لا بديل له " هل عاشق نال من دهماء .."، فالحاضر هنا، يفرض قيوده على الماضي بواقعيته، وبكل ما يملك من قوة الفعل على الشاعر وماضيه؛ حين يجرّم العلاقة بينهما، ويواجهها بأبشع أنواع العقاب التي يعرفها، ويردع بها مرتكبي أقذع الذنوب وهي الرجم، "وقد ينظر الشاعر إلى فراق أحبته، أو تغير عهودهم على أنه لون من ألوان الفناء والتحول الذي لا يبقى عليه شيء، وهو حينئذ قريب من معاني الرثاء، بأن يردّ النوى، أو تحول الحبيب إلى الدهر والأيام"( )، ويثور من منطلق ذلك عليه، ويضحي همّه همًا عامًا لا يتفرد فيه، بل يأنس بصحبة كل الناس.

ويقف الشاعر كما يتبين من مفتتح النص أمام ثلاثية المواجهة بين نفسه من ناحية، وماضيه، وحاضره من ناحية أخرى، وهما يتصارعان أحدهما بقوة وجوده وتمكنه من ذاته على الرغم من أن هذا الماضي نفسه لم يعضده ولن؛ إذ إنه لا يملك هذا، والآخر بقوة الآنية كونه الحقيقة الموجودة في هذه اللحظة والتي لا يمكن للشاعر أن يغمض عينيه عنها مخبرًا أو جوهرًا، وهذه اللحظة الكاشفة التي قرر فيها هو أن يخرج بمعاناته للضوء/ للآخر/ للقارئ ليعينه أو ليسري عنه، وربما ليتطهر أمامه بالاعتراف عما بداخله، هي لحظة فارقة، لا شك أنه يخلع فيها ثياب خوفه، ويجابه نفسه أولًا ومحيطه الذي ينتمي إليه الآن ثانيًا بحقيقة ما بداخله بين ثلاثية المواجهة.

وأول مظاهر هذه المجابهة هي الكشف عن الحقيقة المؤلمة فيما يخص ماضيه(دهماء)، وهي الحقيقة الأقوى والأمكن في بنية الزمن المغايرة، وهي الاستحالة بكل إرهاصاتها الواقعية والعقلية، استحالة العودة إلى الوراء؛ استحالة الإمساك بالزمن في لحظة سابقة، وإيقافها على غرار قولة فاوست Faust الشهيرة " توقفي أيتها اللحظة فأنت في غاية الجمال"، لن يحدث الانتصار على الزمن مطلقًا من قِبل الإنسان؛ فهو يجزم بهذا في نصه، ويواجه به نفسه، ومن يلقي إليه بهمه أيضًا حين يطلق اعترافه بأن الفوز ببيض طير العُقاب(الأَنوق) في رؤوس الجبال الصعبة البعيدة التي يستحيل الوصول إليها، والتي تحرزه فلا يكاد يظفر به أحد (وهو ما يُضرب به المثل في الاستحالة فيقال" أعزُّ من بيض الأنوق") لأسهل من الوصول إلى حبيبته/ بغيته، ولا يغلق باب اعترافه ومواجهته هذا دون أن يمنّي ويثير الشغف، والندم في قلوب، وأنفس المتلقين حين يلقي بحسراته على ذلك الماضي الجميل؛ إذ يفرد لوحة جمال أنثوي لدهمائه/ فردوسه المفقود، يطرّزها بجمال معنوي خاص بالبيئة العربية، وخصوصية ما تؤمن به من سلوكيات وأعراف تحدّد علاقة الرجل بالمرأة، وهو مظهر تألق أنثوي تغنّى به جُلّ الشعراء العرب في حديثهم عن المرأة في تمنّعها وعزتها، وهو مقوّم يضفي جلالًا وهيبة على علاقتها بذلك الرجل المحبّ الذي تخيّرته فتفرّد بهذا الوصل، لقد كان

ابن مقبل إذن ممن تفرّدوا بهذا الوصل؛ أي إنه ممن تفرّدوا بجمال هذه اللحظة الفارقة (زمن ما)/ ذلك الماضي والعيش بين جنباته، وهو ما جعله يتلوى حسرة عليه في مكاشفة لنفسه، وضعفه أمام ما هو كائن بالفعل بكل تفاصيله، ثم ينتقل إلى الأيقونة الأخرى وهي الخمر التي أطال في تصويرها كأجمل ما صوّرت به من تنميق الصورة ما ينبئ بجمال هذه الصورة وصداها في نفسه ووعيه بها.

أ ـــ المرأة /الماضي ـــ الخمر/ الحرية:

لقد توقف ابن مقبل هنا، عند تفاصيل اللحظة الماضية وتعلّقه بها، ما كان له أثره على روحه واتزانها الذي ضاع بضياعها واستحال باستحالتها الآن؛ وهو ما أبان عن ارتباطه الوثيق بأيقونة الخمر التي جعل منها ترياقًا لطالما الآن هو في أشد الحاجة إليه؛ ليعود إلى اتزانه، وليمسك ببعض كينونته؛ فأفاض في تقديم تقاليد الشراب وعادة تقديمه بواسطة الغلمان، وأثر هذا على ما يحيط بهذه الصورة من أنس ولذة روحية هو الآن في حاجة شديدة إليها دونما ريب في ظل معاناة التشظّي ومواجهة الزمن، بعد أن افتتح الحديث عن هذا الاحتياج بتلك المرأة أسطورية الجمال الذي يعرفه هو وجماعته التي ينتمي إليها الآن وأمس (الجماعة القديمة التي تعيش تلك اللحظة القديمة)؛ ويتحقق هنا القول بأن الإنسان " يبحث عما هو حميم إلى نفسه؛ الحميم الذي استقر منذ زمن طويل لا لأنه محسوس، بل لأنه في جوهره أكبر من المحسوس في حقيقته، ... بل حين يُنتهك حجاب العقل يمكن أن نصل إلى أنفسنا القديمة ذات الوجه الأسطوري"( )، وربما الذي نراه نحن أسطوريًا دائمًا؛ لأنه يقدّم لنا الصورة المثالية للحياة الهانئة؛ ولأن وعينا بتلك اللحظة لا يمكن أن يقبّح شيئًا من محتويات تلك الصورة؛ فهي مأمنه وبيته القديم كما سمّاه باشلار Gaston Bachelard( )، أو المكان الأليف، والذي يمكن أن يقابل بالزمن الأليف، وربما أراد ابن مقبل هنا، البحث عن هذين حين رمز لهما بالمرأة وبالخمر الذي قرنهما ببعض ليجعلهما قنّينتين لدواء روحه المستحيل، المرأة/ المكان الأليف الذي يبحث عنه ليرتوي من ريّه، ويستظل بظله من عطش

اغترابه، وتمزق روحه بين الأماكن الآبدة المنافرة، والخمر/ الزمن الأليف المستراح بين جنبات الوجود التي تسبح فيها روحه بحرية، وشغف لطالما تاقت إليه تلك الروح الواجمة.

هذه الروح تعيش في لحظتها الماضية/ الزمن الافتراضي في رغد عيش بين أيقونتي الحياة عنده/ المرأة ــ الخمر، واللتين يرمزان إلى الماضي والحرية التي كانت فيه تحت طائلته، كما يبدو في النص الماضي، ومدى تعلقه الخاص به، والحرية التي استفاض في توصيل لذتها، وجمالها، وبهجتها، وما تمنحه للروح من تجرّد وتسنم إلى المتلقي لا لشيء سوى؛ ليستطيع ــولو لبرهةــ أن يكون هو.

هكذا كان الماضي بجماله الذي صدّاه هنا بجمالها هي، وتفاصيله المحفورة بذاكرته، ويكأنها تفاصيل الزمان والمكان ارتسمها هو على جسد المرأة بجمالها المثالي، ويمنح الشاعر نفسه واتساقه وأمانه معها الذي تغنى به الآن كصراخ الثكل حين صدح في نصه بقوله:

بَيْضُ الأَنُوقِ بِرُعْمٍ دُونَ مَسْكَنِهَا

وبِالأَبَارِقِ مِنْ طِلْحَامَ مَرْكُومُ

إن الاستسلام للزمن/ الدهر/ صيرورته كان نهاية المعركة التي اختتمها بأن ربّت على كتفه مسريًا له بأن الأمر أكبر من قدرته، وأن ما يعانيه هو الآن هو نوع من حتمية صيرورة الزمن التي لا ينجو منها أحد، وهو إقرار أيضًا باستمرارية موقفه من الحدث، والخيار الذي تخيره، بل ربما سيق إليه سوقًا، وهو الاغتراب عن جماعته الإنسانية الحاضرة، وعن زمنه الآني بكل معطياته، والتفرّد بموقفه الوجودي منهما معًا بالعيش أسيرًا في وجود آخر يراه فردوسًا كلما تأكدت استحالته إلى الحد الذي يصل فيه لنقطة الذروة تمزقًا، وهي اللحظة التي أراد فيها التشيؤ، ورأى فيه الخلاص، وهي نزعة إنسانية أكثر تشابهًا مع إنسان الحضارة المتقدمة، وقضية شائكة أكثر حدوثًا في ظل الحضارة المعقدة، إنه أمر يؤكد مدى

تأزم الشاعر، ومدى تطوّر إدراكه ووعيه بما يعتمل داخل ذاته من أحداث كبرى تفوق كثيرًا ما يجري خارجها.

ويختتم الشاعر بوحه بإيمانه الشديد بأنه الموت أقوى الحقائق، وأبقاها على الإطلاق؛ فمهما بلغ من القوة والحماية فلا يتبقى له سوى إحسانه بوصفه نوعًا من تقديم النص للقارئ بشكل نهائي، وبحكمة أهدتها له الحياة ( )، وكأنه يحتكم إلى الموت التحافًا به من غربته عن نفسه، ومرارة التمزق بين ما يريد وما هو كائن، بل جنوحًا إلى النهاية/ المستراح من كل تعب طالما أن الهزيمة أمام الزمن هي الخيار الوحيد الذي لا مناص من قبوله؛ فلا توجد مسافة على الأرض أبعد من الأمس كما يقولون، وهو هنا لا يريد إلا أمسه وإلا فهو الموت.